Ghazzālī

الحِكمةُ في مخلوقاتِ الله

للإمام ابي حامد الغزالي الطوسي
المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية

تحقيق
الدكتور محمد رشيد قباني
استاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق
في جامعة بيروت العربية

توزيع
دار احياء العلوم - بيروت

مطبعة فينوس - بيروت - هاتف ٣١٩٩٣٨

الطبعة الأولى

١٩٧٨ م — ١٣٩٨ هـ

تصميم الغلاف
تقدمة الفنان وجيه نحله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وبعد :

فهذا كتاب نادر ونفيس للإمام الغزالي – رضي الله عنه – أسماه **« الحكمة في مخلوقات الله »** . وهو على صغر حجمه حوى كثيراً من الحِكَم التي يتطلّع الانسان إلى معرفة أسرارها ، فقد بحث فيه الغزالي حكمة خلق الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والأرض ، والبحار ، والماء ، والهواء ، والنار ، والانسان ، والطير ، والبهائم ، والنحل ، والنمل ، والعنكبوت ، ودود القز ، والذباب ، والسمك ، والنبات ؛ وبيّن في كل باب ما فيه من عجائب حكمة الله تعالى في خلقه ، وما تستشعر به القلوب من العظمة لعلاّم الغيوب . فهو كتاب جدير بأن يقتنى ويفيد منه كل انسان ، ومن هنا كان اهتمامي بتحقيقه ونشره .

عملي في هذا الكتاب :

عندما وقعت بين يديّ نسخة هذا الكتاب النادر وطالعتها ، وجدتها دون تحقيق ، متصلة الاسطر ، غير مجزأة الفقرات ، ولا

مرتبة الفواصل ، بل ومضطربة في علامات الترقيم ايضاً ، وهي العلامات المطبعية الحديثة التي تفصل بين الجمل والعبارات ، أو تدل على معنى الاستفهام ، أو التعجب ، وما يحمل عليها . فوجهت لذلك عناية خاصة ، كي لا يخلو هدا الكتاب من هذه الفائدة ، وذلك أمر مطلوب في طباعة الكتب ونشرها ، ونبه عليه الاستاذ عبد السلام هارون في كتابه « **تحقيق النصوص ونشرها** » فقال : « وللترقيم منزلة كبيرة في فهم النصوص وتعيين المعاني ، فربّ فصلة يؤدي فقدها إلى عكس المعنى المراد ، وزيادتها إلى عكسه أيضاً ، ولكنها إذا وضعت في موضعها صح المعنى واستنار ، وزال ما به من الابهام [1] » .

كما عمدتُ أيضاً إلى الآيات القرآنية التي وردت في صلب البحث ، فحققت موضعها من السورة وأشرت إليه في هامش البحث ، كما شرحت الالفاظ الغامضة من معاجم اللغة وأثبتُّها في الهامش أيضاً . ومهدت لذلك كله بترجمة لحياة المؤلف ، تبين علمه وفضله ، ومنزلته وقدره بين علماء الإسلام .

وحسبي أخيراً أني أوجدْتُ هذا الكتاب النفيس في ثوب جديد ، بين أيدي القراء في العالمين العربي والإسلامي ، بعد أن أصبح نادراً ، وفي حكم المخطوطات ، ودون تحقيق . والله ولي التوفيق

بيروت في { ١ محرم الحرام ١٣٩٨ هجرية
و١١ كانون الاول ١٩٧٧ ميلادية }

محمد رشيد قباني

١ ـ تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون / ٨٠

ترجمة حياة المؤلف

الامام الغزالي رضي الله عنه

هو الامام أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي ، الملقب **حجة الاسلام** زين الدين الطوسي ، الفقيه الشافعي [1]. إمام باسمه تنشرح الصدور ، وتحيا النفوس ، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس ، ولسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرؤس ، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة هجرية ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في حانوته [2].

اشتغل في مبدأ أمره بطوس في طلب العلم ، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين « أبي المعالي الجويني » ؛ وجدّ في الاشتغال بالعلم حتى تخرج في مدة قريبة ، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن استاذه ، وصنف في ذلك الوقت المؤلفات الكثيرة. ولقي الوزير **نظام الملك** ، فأكرمه الوزير وعظمه وبالغ في الأقبال عليه وكان بحضرة الوزير جماعة من الافاضل ، فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدة مجالس ، فظهر الغزالي عليهم ، واشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان ، ثم فوّض إليه الوزير تدريس مدرسته

١ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٢١٧ ، تحقيق الدكتور احسان عباس .
٢ ـ طبقات الشافعية للاسنوي ٢/٢٤٢ ، تحقيق عبدالله الجبوري .

النظامية في مدينة بغداد سنة أربعمائة وثمانين ، وأُعجب بـه أهل العراق ، وارتفعت منزلته عندهم .

ثم ترك الغزالي جميع ما كان عليه سنة أربعمائة وثمان وثمانين ، وسلك طريق الزهد ، وقصد الحج ، فلما رجع توجه إلى الشام ، فأقام بمدينة دمشق مدة يلقي الدروس في زاوية الجامع ، ثم انتقل إلى بيت المقدس واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد ، ثم قصد مصر وأقام بالاسكندية مدة ، ثم عاد إلى وطنه **طوس** واستقل بنفسه ، وصنف الكتب المفيدة في فنون عدة **منها** : كتاب « الوسيط ».و« البسيط». و « الوجيز ».و« الخلاصة » في الفقه . **ومنها** : « إحياء علوم الدين » وهو من أنفس الكتب وأجلّها . **وله** في أصول الفقه « المستصفى » فرغ من تصنيفه سنة ثلاث وخمسمائة . **وله** « تهافت الفلاسفة » . و « محك النظر».و « معيار العلم » . و « المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى ».و« مشكاة الأنوار » . و « المنقذ من الضلال » .[1] و « الاقتصاد في الاعتقاد » . و « علوم النظر » . و « معارج القدس في أحوال النفس » . و « مقاصد الفلاسفة » . و « تنزيه القرآن عن المطاعن » . و « المعارف العقلية ».و« جواهر القرآن » . و « فضائح الباطنية » . و « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » . و « منهاج العابدين » . و « ياقوت التأويل في تفسير التنزيل » . هو تفسير يقع نحو أربعين مجلداً[2].

---

١ ـ الأعلام للزركلي ٣/٩٧٠

٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٢١٨

ثم عاد إلى **نيسابور** والتدريس بالمدرسة النظامية ، ثم ترك وعاد إلى بيته في وطنه **طوس** ، واتخذ خانقاه للصوفية ، ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره ، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس ، إلى أن انتقل إلى ربه يوم الأثنين رابع عشر جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة بـ « طوس »[1].

فرحمه الله تعالى

---

١ – طوس : مدينة في « خرسان » من بلاد فارس .

الحكمة في مخلوقات الله

للامام أبي حامد الغزالي الطوسي

المتوفي سنة ٥٠٥ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين ، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين ، وجعل التفكر في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين ، استدلوا عليه سبحانه بصفته فعلموه ، وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحّدوه ، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزّهوه ؛ فهو القائم بالقسط في جميع الأحوال ، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال ، فعلموا أنه الحكيم القادر العليم كما قال في كتابه الكريم : « **شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولو العلم قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم** »[1].

والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام المتّقين ، وشفيع المذنبين ، محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه ، وشرّف وكرّم إلى يوم الدين .

أما بعد : فاعلم يا أخي وفقك الله توفيق العارفين ، وجمع لك خير الدنيا والدين ، أنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه التعظيم له في

---

٢ - الآية ١٨ / من سورة آل عمران .

مخلوقاته ، والتفكر في عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمـة في أنواع مبتدعاتـه ، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين ، وفيه تفاوت درجات المتّقين ، **وضعت هذا الكتاب** لعقول أرباب الألبـاب ، بتعريف وجوه من الحِكم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب ، فإن الله تعالى خلق العقول ، وكمّل هُداها بالوحي ، وأمر أربابهـا بالنظر في مخلوقاتـه ، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعاته ، لقوله سبحانه : **﴿ قُل انظروا مـاذا في السماوات والارض ﴾**(١) وقوله : **﴿ وجعلنا مِنَ الماءِ كل شيء حيّ أفـلا يؤمنون ﴾**(٢) . إلى غـير ذلك من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ، الـتي يفهمها [كل ذي عقل سليم] (٣) . والترقي في اختلاف معانيها يعظّم المعرفة بالله سبحانه ، التي هي سبب السعادة ، والفوز بما وعد به عباده من الحُسنى وزيادة .

وقد بوّبته أبواباً ، يشتمل كلُ باب [منها] على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخَلق ، وذلك حسب ما تنبهت له عقولنا فيما أشرنا إليه ، مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى ، وما وضع من الحِكم في مخلوق واحد من مخلوقاته ، لعجزوا عن ذلك . وما ادركته الخلائق من ذلك [هـو] ما وهب الله سبحانه لكل منهم ، وما سبق له من ربه سبحانه ، والله المسئول أن ينفعنا به برحمته وجوده .

الامام الغزالي

١ – الآية ١٠١ / من سورة يونس .
٢ – الآية ٣٠ / من سورة الانبياء .
٣ – الكلمات التي بين قوسين هكذا [ ] زيادة من المحقق لتوضيح الكلام .

التفكر في خلق السماء وفي هـذا العـالم

قال الله تعالى : **﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها وما لها مِن فُروج ﴾**(١) وقال سبحانه : **﴿ الله الذي خلق سَبعَ سماوات ومِنَ الأرض مِثلَهنّ . يتنزّلُ الأمرُ بينهنّ . لتعلموا أن الله على كلّ شيءٍ قدير . وأن الله قـد أحاط بكل شيءٍ علماً ﴾**(٢) .

إعلم رَحمك الله : أنك إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدتـه كالبيت المبني ، المُعَدّ فيه جميع ما يُحتاج إليه ، فالسماء مرفوعـة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منصوبة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخـائر ، وكل شيء من ذلك معد مهيأ لشأنه ، والانسان كالملك للبيت ، المخوّل لمـا فيه ، فضروب النبات لمآربه ، وأصناف الحيوانات مصرّفة في مصالحه ، فخلق سبحانه السماء ، وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقـة للأبصار وتقوية لها ، ولو كانت

١ - الآية ٦/ من سورة ق.
٢ - الآية ١٢ /من سورة الطلاق .

اشعة وأنواراً لأضرت الناظر اليها ، فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار،وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة ، لا سيا إذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها .

والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر إليه به راحة وانشراحاً ، لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره ملـّه ، وزال عنه ما كان يجده من البهجة والانشراح ، بخلاف النظر إلى السماء وزينتها ، فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجأون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء . وقد قالت الحكماء : يحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ماعندك فيها من السماء [1] .

وفيها أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها ، وبحركتها سير الكواكب فيهتدي بها أهل الآفاق ؛ وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق . ولا توجد مجردة ولا مقبلة في صورة نور ، وقيل انها [أي الكواكب] أنجم صغار متكاثفة مجتمعة ، يهتدي بها على السير من ضل ، وينظر في أي جهة كانت فيقصدها ، وقيل : انها المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الحُبُكْ** ﴾ [2] قيل : الحُبُك الطرق ، وقيل : ذات الزينة . فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها ،وصنعته محكمة صمديّة تدل على سعة علم بارئها . وأمور ترتيبها

---

١ ـ وفي ذلك يقول الله تعالى « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » الصافات / ٦ ؛ ويقول تعالى : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين » الحجر/١٦

٢ ـ الآية ٧/ من سورة الذاريات .

تدل على إرادة منشئها . فسبحان القادر العالِم المريد .

وقيل : في النظر إلى السماء عشر فوائد : تُنقِص الهم ، وتقلّل الوسواس ، وتزيل وهم الخوف ، وتذكر بالله ، وتنشر في القلب التعظيم لله ، وتزيل الفكر الرديئة ، وتنفع لمرض السوداء،وتسلّي المشتاق ، وتؤنِس المحبين ، وهي قبلة دعاء الداعين .

حكمة خلق الشمس

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلَ الشَّمسَ سِراجاً [1] ﴾ وقال: ﴿ وَجَعَلْنا سِراجاً وهَّاجاً [2] ﴾.

إعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الشمس لأمور لا يستكمل علمها إلا الله وحده، فالذي ظهر من حكمته فيها: أن جعل حركاتها لاقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض، ولولا ذلك لبطل أمر [الدنيا] والدين، أو لولاه كيف كان الناس يسعَون في معايشهم؟ ويتصرفون في أمور لهم والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانوا يتهنَّون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته؟ ولولا ضياء نورها ماانتُفِع بالأبصار ولم تظهر الألوان.

وتأمّل غروبها وغيبتها عمن طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة، ولولاه لم يكن للخلق هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء، وراحة ابدانهم، وخمود حواسهم، وانبعاث القوة الهاضمة لهضم

1 ـ الآية ١٦ / من سورة نوح.
2 ـ الاية ١٣ / من سورة النبأ.

طعامهم، وتفنيد الغذاء. ثم كان [به] الحرص لحملهم على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في أبدانهم، فان أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما هدءوا ولا َقرّوا، من حرصهم على َنيل ما ينتفعون به. ثم كانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من الحيوانات والنباتات، فهي بطلوعها في وقت وغروبها في وقت، بمنزلة سراج لأهل بيت، يستضاء به ليهتدوا ويقروا.

وهي في حرها بمنزلة نار يطبخ بها أهل الدار، حتى إذا كمل طبخهم واستغنوا عنها، أخذها من جاورهم وهو يحتاج إليها فينتفع بها، حتى إذا قضى حاجته [منها] سلمها لآخرين، فهي أبداً منصرفة في منافع أهل الأرض بتضادِّ النور والظلمة، وهما على تضادِّهما متعاونين على ما فيه صلاح العالم وقوامه، وإلى هذه القضية الاشارة بقوله تعالى: ﴿ **قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكمُ الليلَ سَرمداً إلى يومِ القيامة ★ مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياء ★ أفلا تسمعون ★ أَفَلا تسمعون ★ قُل أرأيتم إن جعلَ اللهُ عليكمُ النهارَ سَرمداً إلى يومِ القيامة ★ من إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكمُ بليلٍ تسكُنونَ فيه ★ أفلا تُبصِرون** [1] ﴾؟

ـ ومما جاء في ذكر الشمس ايضاً في القرآن قوله تعالى: « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » فصلت / ١٧؛ وقوله تعالى: « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين. وسخر لكم الليل والنهار » ابراهيم / ٣٣؛ وقوله تعالى: « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى. يدبر الامر يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » الرعد / ٢.

1 ـ الآيتان ٧١ / ٧٢ / من سورة القصص.

ثمّ بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول ، فيستقيم أمر النبات والحيوان . **ثم انظر** إلى مسيرها في فلكها في مدة سنة ، وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سُخِّرَ لها بتقدير خالقها ، فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، ولما عُرِفت المواقيت . ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق . فانظر كيف جعل الله الليل سكناً ولباساً ، والنهار معاشاً [١]. وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل ، وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص [٢]. وانظر إلى إمالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء ، فاذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت وسط السماء اشتد العَيظ ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان ، فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان بإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة .

وأمّا ما في ذلك من المصلحة : ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات ، فتتولّد فيه مواد الثمار ، ويستكشف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر ، وتشتد ابدان الحيوان ، وتقوى أفعال الطبيعة. **وفي الربيع** تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء ، فيطلع

١ - وفي ذلك يقول الله تعالى : « وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً » النبأ / ١٠ - ١٢

٢ - وفي ذلك يقول تعالى : « يولج الليل في النهار . ويولج النهار في الليل . وسخر الشمس والقمر . كل يجري لاجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » الاية ١٣/ من سورة فاطر ؛ ويقول : « إن في اختلاف الليل والنهار . وما خلق الله في السماوات والارض لايات لقوم يتقون » يونس / ٦

النبات بإذن الله ، وينوّر الشجر ، وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل . **وفي الصيف** يحمى الهواء فينضج الثمار ، وتنحلّ فضول الأبدان ، ويجف وجه الأرض ، فتتهيأ لما يصلح لذلك من الأعمال . **وفي الخريف** يصفو الهواء ، فترتفع الأمراض ، ويمتد الليل فيعمل فيه بعض الأعمال ، وتحسن فيه الزراعة ، وكل ذلك يأتي على تدريج وبقدر ، حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة ، إلى غير ذلك مما يطول لو ذُكِر .

فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه ، ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج لاقامة دورة السنة ، وهذا الدور هو الذي يجمع الازمنة الأربعة : الشتاء ، والصيف ، والربيع ، والخريف ، وتسير على التمام . وفي القدر من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهي غاياتها ، ثم تعود فتستأنف وقت السير ، وبمسيرها تكمل السنة ، ويقوم حساب السنة – على الصحة – على التاريخ بتقدير الحكيم العليم .

تأمل إشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى ، فإنها لو بزغت في موضع واحد لا تعدوه لما وصل شعاعها إلا إلى جهة واحدة ، وخلت عنها جميع الجهات ، فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها ، فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق ، فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى الغرب على ما أستتر عنها أول النهار ، فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها .

ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار ، كيف وقتهما سبحانه على ما فيه

صلاح العالم ، فصارا بمقدارٍ لو تجاوزاه لأضرّ بكل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يفر ما دام يجد ضوء النهار ، وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي فيئول أمرها إلى تلفها، وأما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق ، وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضاً لكان معوّقاً لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش ، وتجمدت الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد ، كالذي يحدث إذا كان الموضع لا تقع الشمس عليه [1] .

---

١ ـ الشمس جرم سماوي مستعر ، شأنها في ذلك شأن سائر النجوم ، يزيد قطرها على مليون كيلو متر ، أي أن قطر الشمس أكبر من قطر الارض مائة مرة ، وتبلغ درجة حرارة سطح الشمس الخارجى نحو ستة الاف درجة مطلقة ، وتزداد هذه الحرارة بازدياد القرب من المركز حيث تصل إلى اكثر من عشرين مليون درجة ، وذلك نظراً لما تعانيه مكونات المركز من الضغوط العالية ؛ وتندلع من الشمس نافورات من غازات ملتهبة تصل إلى ارتفاعات عظيمة جداً من سطحها ، ومن هذه النافورات ما يعرف باسم البقع الشمسية ، وهي أعاصير جبارة في جو الشمس ، وقد يبلغ قطر الاعصار منها نحو خمسين الف كيلو متر . (راجع كتاب الكون بين العلم والدين للدكتور محمد جمال الدين الفندي / ٦٦ ، طبعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة) .

في حكمة خلق القمر والكواكب

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ تَبارَكَ الذي جَعَلَ في السماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فيها سِراجاً وَقَمَراً مُنيراً ﴾[1]

إعلم أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبَرد الهواء ، وهدوء الحيوا وسكونه ، لم يجعله سبحانه ظلمة داجية لا ضياء فيها البتّة ، إذ لا يمكن أن يعمل عملاً فيه ، وربما احتاج الناس إلى بعض أعمالهم في الليل ، إما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار ، وقد يقع ذلك لشدة حرارة ، أو لغيره من الأسباب ، فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما نحتاج إليه في المعونة على ذلك ، فجعل طلوعه في بعض الليالي ، وينقص نوره عن نور الشمس وحرها ، لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم في النهار ، فينعدم ما به ينعمون من الهدوء والقرار ، فيضر ذلك بهم .

وجعل في الكواكب جزءاً من النور يستعان به إذا لم يكن ضوء

---

١ ـ الاية ٦١ / من سورة الفرقان .

القمر ، وجعل الكواكب زينة السماء ، وأنساً وانشراحاً لأهل الأرض، فما ألطف هذا التدبير ! وجعل للظلمة دولةً ومدةً للحاجة إليها ، وجعل خلالها النجوم،فأنظُر من النور ليكمل به ما احتيج إليه .

ثم في القمر علم الشهور والسنين ، وهو صلاح ونعمة من الله [1] .

ثم في النجوم مآرب أخرى ، فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال ، كالزراعة والغراسة ؛ والاهتداء بها في السفر في البر والبحر ، وأشياء مما تحدث الأنواء والحر والبرد ؛ وبها يهتدي السيّارون في ظلمة الليل ، وقطع القفار الموحشة ، واللُّجَج السائلة ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذي جَعَلَ لكُم النجومَ لتهتَدوا بها في ظلُمات البرّ والبحر** [2] ﴾ مع ما في ترددها في السماء مقبلة ومدبرة، ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة .

وفي تعريف القمر ، خاصة استهلاله ومحاقه ، وزيادته ونقصانه ، واستنارته وكسوفه ، كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لاصلاح العالم [3].

---

١ ـ ومنه قوله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الايات لقوم يعلمون » يونس / ٥ ؛ وأيضاً قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة . لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب . وكل شيء فصلناه تفصيلا » الاسراء / ١٢

٢ ـ الاية ٩٧ / من سورة الانعام .

٣ ـ القمر هو أقرب اجرام السماء إلينا ولا يزيد بعده عنا على ٣٨٠ ألف كيلو متراً ، وأوجه القمر هي التي مكنت الانسان منذ القدم من التعرف على الشهور وتقسيم السنة الى اثني عشر شهراً ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « يسألونك عن الأهلة . قل هي مواقيت للناس والحج » . البقرة / ١٨٩ (الكون بين العلم والدين للدكتور جمال الدين الفندي / ٦٩) .

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دوراناً سريعاً ، وسيرها معلوم مشاهد ، فإنا نشاهدها طالعة وغاربة ، ولولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربع وعشرين ساعة ، فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها ، حتى خفي عنا شدة مسيرها في فلكها ، لكانت تَتَخطّف بتوهجها الأبصار لسرعة حركتها ، كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت في الجو، **فانظر** لطف (الباري) سبحانه في تقدير سيرها في البعد البعيد، كيلا يحدث من سيرها حادث لا يحتمل ، مقدّرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة .

وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة ، وتحتجب في بعضها ، مثل الثريا والجوزاء والشعرى ، فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها ، فكان في طلوع بعضها في وقت واحد دون الآخر ما يدل على ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحهم ؛ ولذلك جُعِلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة ، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر ، فإنها لا تغيب ولا تتوارى .

ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون ، من تنقلات المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج ، كما يستدل على أشياء تحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلها ، ولو كانت متنقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه ، لأنه إنما يعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها في البروج الدانية ، كما يعرف سير السائر في الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها ، فقد صار هذا الفلك شمسه

وقمره ، ونجومه وبروجه، تدور على هذا العالم بهذا دوراناً دائماً في الفصول الأربعة من السنة ، لصلاح ما فيه من حيوان ونبات وغير ذلك بتقدير العزيز العليم .

ومن عظيم الحكمة خلق الأفلاك التي بها ثبات هذا العالم ، على نهاية من الاتقان لطول البقاء وعدم التغير ، فقد كُفِيَ الناس التغير في هذا الأمر الجليل ، الذي ليس قدرة ولا حيلة في إصلاحه ، ولو نزل به تغيُّر فإنه يوجب ذلك التغير أمراً في الأرض ، إذ قوام الأرض مرتبط بالسماء ، فالأمر في جميع ذلك ماضٍ على قدرة الباري سبحانه، لا يختل ولا يعتل ، ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته لصلاح العالم ، **فسبحان العليم القدير .**

في حكمة خلق الأرض

قال الله تعالى : ﴿ **والأرضَ فرَشناها فنِعمَ الماهِدون** [١] ﴾
وقال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرضَ وما بينهما لاعِبين** [٢] ﴾

فانظر كيف جعل الله الأرض مِهاداً ؛ ليستقر عليها الحيوان ، فإنه لا بدله من مستقر ، ولاغنى له عن قوت ، فجميع الأرض محل للنبات لقوته ، ومسكن يكنّه من الحر والبر ، ومدفن يدفن فيه ما تؤذي رائحتهِ والجِيَف والاقذار من أجسام بني آدم وغيرها ، كما قال سبحانه : ﴿ **ألم نجعل الأرضَ كِفاتاً ★ أحياءً وأمواتاً** [٣] ﴾ وقيل في تفسير هذه الآية هذا القول وغيره [٤]

ثم ذلل طرقها لينتقِل فيها الخلقُ لطلب مآربهم ، فهي موضوعة

١ ـ الآية ٤٨ / من سورة الذاريات .
٢ ـ الآية ١٦ / من سورة الأنبياء .
٣ ـ الآية ٢٥ / من سورة المرسلات.
٤ ـ « الكفات » من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه ، والمعنى في الآية : أنها تكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها (تفسير الكشاف ٤ / ٢٠٣ ؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٤٦٠) .

لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان ، والحرث ، والنبات . وجعل فيها الاستقرار والثبات ، كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ والأرضَ بعدَ ذلكَ دَحاها أخرَجَ منها ماءَها ومرعاها * والجبالَ أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ [1] . فأمكن الخلائق بهذا ، السفر فيها في مآربهم ، والجلوس لراحتهم ، والنوم لهدوئهم ، والانتقال لأعمالهم ، فإنها لو كانت رجراجة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئاً من النبات وجميع الصناعات ، وكانوا لا يتهنّون بالعيش والأرض ترتجّ بهم من تحتهم ، واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ، ترهيباً للخلق ، وتخويفاً لهم ، لعلهم يتقون الله ، وينزعون عن الظلم والعصيان ، فهذا أيضاً من الحكمة البالغة .

ثم إن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص ، أرأيت لو أفرط اليبس عليها حتى تكون بجملتها حجراً صلدا لما كانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوانات ، ولا كان فيها حرث ولا بناء ، فجعل لينها لتتهيأ لهذه الأعمال .

ومن الحكمة في خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب ، لينحدر الماء على وجه الأرض ، فيسقيها ويرويها ، ثم يصير إلى البحر في آخر الأمر ، فاشتبه ذلك ما إذا رفع أحد جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه ، ولولا ذلك لبقي الماء مستبحراً على وجه الأرض ، فيمتنع الناس من أعمالهم ، وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك .

---

[1] ـ الآيات ٣٠ ـ ٣٣ / من سورة النازعات .

أنظر إلى ما خلق الله من المعادن ، وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة في منافعها والوانها ، مثل الذهب والفضة ، والياقوت والزمرد ، والبَسَنفَش ، وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة المختلفة في ألوانها ، وأنواع أخرى مما يصلح للأعمال والجمال ، كالحديد والنحاس ، والقزدير والرصاص ، والكبريت والزرنيخ ، والتوتيا والرخام ، والجبس والنفط ، وأنواع لو عُدِّدَت لطال ذكرها ، وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم . فهذه نعم يسَّرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار .

ثم انظر إلى إرادة إجادة عمارتها وانتفاع العباد فيها ، يجعلها هشّة سهلة ، بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال ، فلو يبست كذلك لتعذرت ، فإن الحرث لا يستقيم إلا مع رخو الأرض لزراعة الأقوات والثمر ، وإلا فلا يتعدى الماء إذا صلبت إلى الحب ، مع أن الحب لا يمكن دفنه إلا بعد أن تلين الأرض بالنداوة ، ويمكن إذ ذاك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء ، فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق متلبسة بالثرى ، حتى يقف الشجر والنبات على ساقه ، وقد جعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق من الفروع .

ومن رحمته في لينها أن يسَّر للناس حفر الآبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك ، إذ لو حفرت في الجبال لصعب الأمر وشق . ومن الحكمة في لينها تيسير السير للسُّعاة فيها ، إذ لو صلبت لعسر السير ولم تظهر الطرق ، وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله : « **هو الذي جعل لكمُ الأرضَ ذلولاً فامشوا في مناكِبها وكلوا**

مِن رزْقهِ وإليه النشور »[١] ؛ وقال تعالى : « **وَجعلنا فيهــا فجاجاً سُبُلاً لعلهم يهتدون** »[٢] . ومن ذلك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها في البناء ، وعمل اللَّبِـن وأواني الفخار ، وغـير ذلك . والمواضع التي ينبت فيها الملح والشب ، والبورق والكبريت ، أكثرها تربة رخوة ، وأيضاً أجناس من النبات لا يوجد إلا في التراب والرمل دون الأرض المَحِلة[٣]. ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة صغرها ، فيتخذون فيا مسارب[٤] ، وبيوتاً يأوون إليها .

ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكرنا ، فقد امتنّ الله سبحانه على سليمان عليه السلام بقوله : « **وأسَلْنا له عَيْنَ القِطْر** »[٥] ، أي سهلت له الانتفاع **بالنحاس** ، وأطلعناه على معدنه ؛ وقال امتناناً على عباده : « **وأنزلنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومَنافعُ للناس** »[٦] والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه : « **وأنزل لكم من الأنعام** »[٧] أي وَخلَقَ . وقد ألهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغـير ذلك ، لمنافعهم وما يحتاجون إليه في معاشهم ، وفي اتخاذ أوانيهم ، وفي ضبطها ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته ، واتخاذ أنواع من الحجارة

---

١ – الآية ١٥ / من سورة الملك.
٢ – الآية ٣١ / من سورة الانبياء .
٣ – يقال أرض « محلة » أي مجدبة ليس فيها مرعى ولا كلأ (البستان معجم لغوي لعبد الله البستاني / ٢٢٣٧).
٤ – « المسارب » جمع ، ومفرده سرب وهو الطريق (المصباح المنير للمقري / ١٢٤) .
٥ – الآية ١٢ / من سورة سبأ .
٦ – الآية ٢٥ / من سورة الحديد .
٧ – الآية ٦ / من سورة الزمر .

النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ، ويتخذون منها أواني لحفظ ما يحصل فيهـا من الأمور النفيسة لتبقى فيهـا سليمة لوقت الاحتياج إليها ، إذ لا غنى لهم عنها ؛ وكذلك يستخرج من المعادن الأكحال ، مثل (الدهبنج والمرفنعنا) والسادن ، والتوتيا ، وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها ، **فسبحان المنعم الكريم** .

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال ، **قال الله تعالى** : « **والجبال أرساها** »[١] ، وقال تعالى : « **وألقى في الأرْض رَوَاسِيَ أنْ تَميدَ بِكُم** »[٢] ؛ وقال سبحانه : « **وَأنزلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فأسكنّاهُ في الأرض**[٣] » . فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة ، لا يحيط بجميعها إلا الله ، فمن ذلك : أن الله تعالى أنزل من السماء المياه ليُحيي بها العباد والبلاد . فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخو الأرض ، فكانوا لا يجدون المياه إلا بعد حفر وتعب ومشقة ، فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه ، وتخرج منها أولاً بأول ، فتكون منها عيون وانهار وبحار ، يرتوي بها العباد في أيام القَيظ إلى أوان نزول غَيث السماء . وفي الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه ، فجعل سبحانه الثلج محفوظاً على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس ، فيكون منه أنهارٌ وسواقٍ يُنتفَع بها إلى أوان نزول الغيث أيضاً . ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء ، فيؤخذ منها وينتفع به .

---

١ – الآية ٣٢ / من سورة النازعات .
٢ – الآية ١٥ / من سورة النحل .
٣ – الآية ١٨ / من سورة المؤمنون.

ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التي لا توجد إلا فيها ، وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة ، فيعمل منها السفن ، وتعمر منها المساكن ، وفيها الشّعار [١] التي لا يوجد ما يعظم من الأخشاب إلا فيها ، وكذلك العقاقير أكثرها لا يوجد إلا بها.

وفيها وِهاد تنبت مزارع للأنعام ، ومزارع لبني آدم ، ومساكن للوحوش ، ومواضع لأجل النحل . ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من المساكن تقيهم الحر والبرد ، ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى ، وقد ذكر الله ذلك فقال : ﴿ **وكانوا ينحتونَ منَ الجبالِ بُيوتاً آمِنين** [٢] ﴾ . ومن فوائد الجبال أنها جُعلت اعلاماً يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض ، ويستدل بها المسافرون في البحار على الموانىء والسواحل ؛ ومن فوائدها أن الفئة القليلة الخائفة من عدوان من تطيقه تتخذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ، ويمنعها من تخافه فتطمئن لذلك .

ثم انظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة ، وقدرهما بتقدير مخصوص ، ولم يجعل ذلك ميسراً في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته ، كما جعل هذه السعة في المياه ، وما ذلك إلا لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار إلى ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **وإنْ مِن شيءٍ إلا عِندَنا خزائِنهُ وما نُنزّلهُ إلا بِقدَرٍ معلوم** [٣] ﴾ . فسبحان العليم الحكيم .

١ – «الشعار» بالفتح كثرة الشجر بالارض (المصباح المنير للمقري ١/١٤٣).
٢ – الآية ٨٢/ من سورة الحجر .
٣ – الآية ٢١ / من سورة الحجر .

في حكمة خلق البحر

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَهوَ الذي سَخّرَ البحرَ لِتأكُلوا منهُ لحماً طرِيّاً وَتستخرِجُوا منهُ حِليَةً تلبَسونَها * وَترى الفُلكَ مَواخِرَ فيهِ * وَلِتَبتَغوا مِن فَضلِهِ * ولَعلكم تشكُرون** [١] ﴾ .

إعلم رحمك الله : أن الله سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها ، فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى أن المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء كربوة صغيرة في بحر عظيم ؛ فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوان بالإضافة إلى ما خلق في البحر كإضافة الأرض إلى البحر ، وقد شاهدت عجائب ما هو مكشوف منها ، فتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض؛ ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما إذا

١ - الآية ١٤ /من سورة النحل.

أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاف[1] ، وجبال أو جزائر .

وما من صنف من أصناف حيوان البر من إنسانٍ ، وطـائر ، وفرس ، وبقر ، وغير ذلك إلا وفي البحر أمثالها وأضعافها . وفيه أجناس من الحيوانات لم تعهد أمثالهـا في البر ، وكل منها قد دبّره الباريء سبحانه ، وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه ، ولو استقصي ذكر ما يحتويه بعضه لاحتاج إلى وضع مجلدات .

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً في صدف تحت المـاء ، وأثبت المرجان في جنح صخور في البحر ، فقال سبحانه : « **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ** »[2] ، وذلك في معـرض الامتنان ، وقيـل المرجان المذكور في القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ ، ثم قـال ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان** ﴾[3] ، وآلاؤه : تفضلـه وَنِعَمُـهُ .

ثم انظر ما يقذفه من العنبر وغيره من المنفوع ، ثم انظر إلى عجائب السفن ، وكيف مسكها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال ، وتحصيل ما لهم من الأغراض ، وجعلها من آياته ونعمته ، فقال سبحانه :

---

١ ـ الحشف هو التمر الذي يجف وييبس من غير نضج ، فلا يكون لـه لحم (المصباح المنير للمقري ١/٦٤) .

٢ ـ الآية ٢٢ / من سورة الرحمن .

٣ ـ الآية ٢٣ / من سورة الرحمن .

﴿ **وَالفُلْكِ التي تَجْرِي في البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ** ﴾[1] . فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم ، وينتقلون بها من أقاليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن ، ولو راموا التوصل بغيرها لأدى إلى أعظم المشقات ، وعجزوا عن نقل مـا ينقل من المنقولات إلى ما بَعُد من البلاد والجهات . فلما أراد الله سبحانه وتعـالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم ، خلق الاخشاب متخلخلة الاجزاء بالهواء ليحملها الماء ، ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما يحمل بـه الاثقال ، وألهم العباد اتخاذها سفناً ، ثم أرسـل الرياح بمقادير ، في أوقات تسوق السفن وتسيّرها من موضع إلى موضع آخر ، ثم ألهـم أربابهـا معرفة أوقات هبوبها وفترتها ، حـتى يسيروا بالرياح التي تحمل شراعها .

وانظر إلى ما يسّره سبحانه في خلقه الماء ، إذ هو جسم لطيف رقيق سيّال متصل الاجزاء كأنه شيء واحـد ، لطيف التركيب ، سريع القبول للتقطع ، حتى كأنه منفصل مسخّر للتصرف ، قـابل للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه ، فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله ، وفي بعضه متسع للفكر ، وكل ذلك شواهد متظاهرة ، ودلائل متضافرة ، وآيات ناطقة بلسان حـالها ، مفصحة عن جلال بارئها ، معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته قـائلة : أما ترى تصويري وتركيبي وصفاتي ، واختلاف حالي وكثرة فوائدي؟ أيظن ذو لب سليم ، وعقل رصين أني تلونت بنفسي ؟ أو أبدعني أحد من جنسي ؟ **بل صنع القادر القهار ، العزيز الجبار** .

---

١ ـ الآية ١٦٤ / من سورة البقرة .

في حكمة خلق الماء

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المَـــاءِ كُلَّ شَيْءٍ حيٍّ * أفَلاَ يُؤمِنُونَ ﴾[١] ؟ وقال سبحانه : ﴿ وأنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ * مَا كَانَ لَكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا * أإلهٌ مَعَ الله * بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[٢] .

أنظر وفقك الله إلى ما منّ به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب ، الذي بـــه حياة كلها من على وجه الارض من حيوان ونبات ، فلو اضطر الإنسان إلى شربة منه ومنع منها لهـان عليه أن يبذل فيها جميـع ما يمكنه من خزائن الدنيا ، والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة .

وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها ، ولو جعلها بقدر لضاق الامر فيها ، وعظم الحـــرج على كل من سكن

١ ـ الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

٢ ـ الآية ٦٠ من سورة النمل .

الدنيا ، ثم انظر لطافة الماء ورقته حتى ينزل من الارض ، ويتخلـل أجزاءها ، فتتغذى عروق الشجر ، ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنبات ، وهو من طبعه الهبوط .

ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لإماعة الأغذية في أجواف الحيوان ، لينصرف إلى موضعه ، جعـــل لشاربه في شربه لذة عند حاجته إليه ، وقبوله به ، ويجد شاربه فيه نعيماً وراحة . وجعــــله مزيلا للأدران عن الأبدان ، والأوساخ عن الثياب وغيرها . وبالمـاء يبل التراب فيصلح للبناء والأعمال، وبه يرطب كل ما يبس مما لا يمكن استعماله يابساً ، وبه ترق الأشربة فيسوغ شربها ، وبه تطفأ عـــاذية النار ، وإذا وقع فيها فلا تلتهب فيه إذا ما أشرف الناس منها على ما يكرهون ، وبه تزول الغصّة إذا أشرف صاحبها على الموت ؛ وبـــه يُغْتَسَل التعب فيجد صاحبه الراحة لوقته ؛ وبه تستقيم المطبوخات، وجميـع الاشياء التي لا تستعمل ولا تصلح إلا رطبة ، إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى لهم عنها .

فانظر في عموم هذه النعمة ، وسهولة تناولها مع الغفلة عن قدرها، ومع شـــدة الحاجة إليها ، فلو ضاقت لكدرت الحياة في الدنيا ، فعلم بهذا أن الله تبارك وتعالى أراد بإنزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن ، إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها لمن يروم حصرها ؛ **فسبحان المتفضل العظيم** .

في حكمة خلق الهواء

قال الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ * فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ * وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[1] .

إعلم رحمك الله أن الهواء في خلقه تتخلله الرياح ، ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر، وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات ، لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر ، فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه لانصرفت الحرارة التي في الحيوانات إلى قلبها ، فكان هلاكها بسبب ذلك .

ثم انظر إلى الحكمة في سَوْق السحاب به ، فيقطع المطر بانتقال السحاب إلى موضع يُحتاج إلى المطر فيه للزراعة ، فلولا لطف الباري بخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة في أماكنها ، وامتنع انتفاع الارض بها .

١ ـ الآية ٢٢/من سورة الحجر .

ثم انظر كيف تسير السفن بها ، وتنتقل بحدوثها وهبوبها ، فتحمل ما فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لم يخلق تلك الاشياء فيها ، فينتفع أهلها بها ، فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الاشياء إلا بمواضعها التي خلقت فيها خاصة ، ولعسُر نقلها بالدواب إلى غيرها من الاقاليم . وللعباد ضرورات تدعو إلى ما ينقل إليم مما ليس عندهم ، ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يجلبها ويعلم فوائدها .

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة التي تتخلل أجزاء العالم ، فيُنَقّي بحركته عفن الارض ، فلولاه لعفنت المساكن ، وهلك الحيوان بالوباء والعلل . ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السوافي والرمال إلى البساتين ، وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء ، وتستر وجوه جبال بالسافي ، فيمكن الزراعة فيه ، وما فضل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه ، وكل ذلك بحركة البحر بالهواء ، فيقذف البحر العنبر وغيره، مما ينتفع به العباد في أمورهم .

ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء، فيقع على الارض قطرات ، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه ، ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهاراً وبحاراً على وجه الارض من غير تضرر ، ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه ، فانظر إلى أثر رحمة الله ، فسبحان اللطيف بخلقه ، المدبّر لملكه . **ثم انظر** إلى عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها ، وشمول هذه النعمة وجليل قدرها ، كما نبه العقول عليها بقوله تعالى :

﴿هُوَ الذِي أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ * وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ * إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] .

ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة ، أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث ، فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم ، فلو دام واحد منها عليه لكان فساداً، ألا ترى إلى الامطار إذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضروات ، وهدمت المساكن والبيوت ، وقطعت السبل ومنعت من الاسفار ، وكثير من الحرف والصناعات ، ولو دام الصحو لجفت الابدان والنبات وعفن الماء الذي في العيون والاودية ، فأضرّ ذلك بالعباد ، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الامراض ، وغلَت بسببه الاقوات ، وبطل المرعى ، وتعذر على النحل ما يجدونه من الرطوبة التي يرعاها على الازهار .

وإذا تعاقبا – للصحو والمطر – على العالم اعتدل الهواء ، ودفع كل منهما ضرر الآخر ، فصلحت الاشياء واستقامت ، وهذا هو الغالب من مشيئة الله . فإن قيل قد يقع من أحدهما ضرر في بعض الاوقات ، قلنا قد يكون ذلك لتنبيه الإنسان بتضاد الاشياء على نعمة الله وفضله ورحمته وأنه هو الغالب ، فيتحصّل لهم بذلك انزجار عن الظلم والعصيان ، ألا ترى من سقم جسمه احتاج إلى ما يلائمه من

١ ـ الآيتان ١٠و ١١/ من سورة النمل .

الأدوية البَشِعَة الكريهة ليصلح جسمه ، ويصح ما يفسد منه ، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ * إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[1] .

١ ـ الإية ٢٧ / من سورة الشورى .

في حكمة خلق النار

قال الله تعالى : ﴿أفَرَأيْتُم النَّارَ الَّتي تُورُون * أأنْتُمْ أنشأتُم شَجَرَتَهَا أمْ نَحْنُ المُنْشِئُون * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ومَتَاعاً لِلمُقْوِين * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيم﴾[1] .

إعلم وفقنا الله وإياك : أن الله خلق النار ، وهي من أعظم النعم على عباده ، ولما علم سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثّها في العالم مفسدة ، جعلها الله بحكمته محصورة، حتى إذا احتيج إليها وُجِدَت واستُعمِلت في كل أمر يُحتاج إليها فيه . فهي مخزونة في الأجسام ، ومنافعها كثيرة لا تحصى ، فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط ، ولا صحة هضم لمن لا يستعملها في أكل وشرب ، فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم .

١ - الآيات ٧١ - ٧٤ / من سورة الواقعة .

ثم انظر فيما يحتاج الناس إليه من الذهب ، والفضة والنحاس ، والحديد والرصاص والقزدير ، وغير ذلك . فلولاها لم يكن شيء من الانتفاع من هذه الأشياء ، فبها يُذاب النحاس فتُعمل منه الأواني وغيرها ، وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر ، فقال تعالى : ﴿إعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكراً * وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾[1] . وبها يلين الحديد ، فيعملون به أنواعاً من المنافع والآلات للحروب ، مثل الدروع والسيوف ، إلى غير ذلك مما يطول مقداره ، وقد نبّه الله تعالى على مثل هذ فقال : ﴿وَأنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاس﴾[2] ؛ وقال تعالى : ﴿لِتُحْصِنَكُم مِنْ بَأسِكُم فَهَلْ أنْتُمْ شَاكِرُون﴾[3] ؟ ومن الحديد يعمل آلات للحرث والحصاد ، وآلات لا تتأثر بالنار ، وآلات يطرق بها ، وآلات لقطع الجبال الصماء ، وآلات لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها ، فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع ، ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة ، ولكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة .

ثم انظر إلى ما جعل الله تعالى في النار من الفرح والتروّح عندما تغشى ظلمة الليل ، فيستضيئون بها ، ويهتدون بنورها في جميع

١ - الآية ١٣ / من سورة سبأ .
٢ - الآية ٢٥ / من سورة الحديد .
٣ - الآية ٨٠ / من سورة الانبياء .

أحوالهم من أكل وشرب ، وتمهيد مراقد ، ورؤية ما يؤذيهم ، ومؤانسة مرضاهم ، والعمل عليها براً وبحراً ، فيجدون بوجودها أنساً ، حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم ، ويدفعون بها ضرر الثلوج ، والرياح الباردة ، ويستعينون بها في الحروب ، ومقاومة حصون لا تُملك إلا بها ؛ فانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم، إن شاءوا خزنوها، وإن شاءوا أبرزوها.

في حكمة خلق الانسان

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً * فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً * فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً * فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً * ثُمَّ أنشَأناهُ خَلْقاً آخَرَ * فَتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخَالِقِينَ * ثُمَّ إنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إنَّكُمْ يَومَ القِيامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

إعلم وفقك الله تعالى : أن الله عزّ وجلّ لمّا سبق في علمه خَلْق بني آدم ،وبثُّهم في هذه الدار وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار ، خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض ، فخلق سبحانه الذكر والأنثى، وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي ، حتى عجزوا عن الصبر، وعَدِموا الحيلة في اجتناب الشهوة، فساقتهم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع ، وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به إلى إيداع الماء

١ - الآيات ١٢ - ١٦ / من سورة المؤمنون .

في القرار المكين ، الذي يخلق فيه الجنين ، فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن ، وخرجت ماء دافقاً مندفعاً بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة ، فانتقلت بسبب الافلاج من باطن إلى باطن ، فكانت مع انتقالها باقية على أصلها، لأنها ماء مهين ، أدنى شيء يباشرها يفسدها ، ويغير أصلها ومزاجها ، فهي ماء يختلط جميعه بنسب تستوي فيه أجزاؤه ، لا تفاوت فيها بحال ، فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد تقلبه من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة إلى العظام ، ثم كساها اللحم ، وشدها بالأعصاب والأوتار ، ونسجها بالعروق ، **وخلق الأعضاء وركّبها** :فدوّر سبحانه الرأس ، وشق فيها السمع والبصر، والأنف والفم ، وسائر المنافذ :

فجعل للعين البصر ، ومن العجائب سِرُّ كَوْنها مبصرة للأشياء، وهو أمر يُعجَز عن شرح سره ، وركبها من سبع طبقات ، لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها،فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الإبصار . وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها ، وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره ، فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ، ويغلق في غير وقتها ، ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ، ولا ينقص نقصاً يضرّ بها . وخلق في مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها ، وجعل طرفيها منخفضين عن وسطها قليلاً ، لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين . وجعل الحاجبين جمالاً للوجه، وستراً للعينين، وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة .

وجعل شعر الرأس واللحية قابلاً للزيادة والنقص ، فيفعل فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه .

ثم انظر إلى الفم واللسان ، وما في ذلك من الحِكَم ، فجعل الشفتين ستراً للفم ، كأنها باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه ، وهو ستر على اللثة والأسنان، مفيد للجمال ، فلولاهما لتشوهت الخلقة ، وهما معينان على الكلام ، واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان، وتقليب الطعام ، وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ، ويسهل ابتلاعه .

ثم جعل الأسنان أعداداً مفترقة ، ولم تكن عظماً واحداً، فإن أصاب بعضها ثلمٌ انتفع بالباقي ، وجمع فيها بين النفع والجمال ، وجعل ما كان منها معكوساً زائد الشُّعَب حتى تطول مدته مع الصنف الذي تحته ، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام، وفي الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء ، فإن المضغ هو الهضم الأول ، وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام ، وجمالاً للفم ، فأحكم أصولها، وحدد ضروسها ، وبيَّض لونها مع حمرة ما حولها ، متساوية الرءوس ، متناسبة التركيب ، كأنها الدر المنظوم .

ثم انظر كيف خلق في الفم نداوة محبوسة ، لا تظهر إلا في وقت الحاجة إليها ، فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويهاً للإنسان ، فجعلت ليبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويفه من غير عنت ولا ألم ، فإذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التي خلقت

للترطيب ، وبقي منها ما يبل اللهاة والحلق ، لتصوير الكلام ، ولئلا الفم ، فإن جفافه مهلك للإنسان .

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه : إذ جعل للآكل لذة الأكل ، فجعل الذوق في اللسان وغيره من أجزاء الفم ، ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ ، فيجد في ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى تناوله ، وليجتنب الشيء الذي لا يوافقه ، ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة .

ثم إن الله تعالى شقّ السمع ، وأودعه رطوبة مرة ، يحتفظ بها السمع من ضرر الدود ، ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون السمع ، وحفظ الأذن بصدفة لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ، وجعل فيها زيادة حسّ ، لتحسّ بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيرها ، وجعل فيها تعويجات ليطرد فيها الصوت ، ولتكثر حركة ما يدب فيها ، ويطول طريقه ، فيتأثر وينتبه صاحبها من النوم .

ثم انظر إلى ادراك المشمومات بواسطة ولوج الهواء ، وذلك سر لا يعلم حقيقته إلا الباري سبحانه ، إلى غير ذلك . ثم انظر كيف رفع الأنف فأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وجعل فيهما حاسة الشم ، ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ، وليتنعّم بالروائح العطرة ، ويتجنب الخبائث القذرة ، وليستنشق أيضاً روح الحياة غذاءً لقلبه ، وترويحاً لحرارة باطنه .

ثم خلق الحنجرة ، وهيأها لخروج الأصوات ، ودوّر اللسان في

الحركات والتقطيعات ، فيقطع الصوت في مجاري مختلفة ، تختلف بها الحروف لتسع طرق النطق . وجعل الحنجرة مختلفة الأشكال في الضيق والسعة ، والخشونة والملاسة ، وصلابة الجوهر ورخاوته ، والطول والقصر ، حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات ، فلم يتشابه صوتان ، كما خلق بين كل صورتين اختلافاً ، فلم تشتبه صورتان ، بل يظهر بين كل صورتين فرقان ، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت ، وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان ، وذلك لسر التعارف ، فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما ، فخلق منهما خلقاً جعله مخالفاً لخلق أبيه وأمه ، ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف .

ثم انظر لخَلق اليدين ، يهدين إلى جلب المقاصد ودفع المضارّ ، وكيف عرّض الكف وقسّم الأصابع بأنامل ، وجعل الأربعة في جانب والابهام في جانب ، فيدور الابهام على الجميع ، فلو اجتمع الأولون والآخرون ، على أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجهاً آخر عن وضع الأصابع ، سوى ما وُضعت عليه من بعد الابهام عن الأربعة ، وتفاوت الأربعة في الطول ، وترتيبها في صف واحد لم يقدروا على ذلك ، وبهذا الوضع صلح القبض والإعطاء ، فإن بَسَطَها كانت طَبَقاً يضع عليه ما يريد ، وإن جَمَعَها كانت آلة يضرب بها ، وإن ضمّها ضماً غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة .

ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل ، وعماداً لها من ورائها ، حتى لا تضعف ، ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها ، وليحك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك .

فانظر أقلّ الأشياء في جسمه لو عُدِمها وظهرت به حكّة لكان أضعف الخلق ، وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه ، وجلب ما ينتفع به في ذلك ، ولم يقم له غير الظفر مقامه في حك جسده ، لأنه مخلوق لذلك ولغيره ، فهو لا صلب كصلابة العظام ، ولا رخو كرخاوة الجلد ، يطول ويخلَق ، ويُقصّ ، ويقصر لمثل ذلك . ثم جعله يهتدي به إلى الحك في حالة نومه ويقظته ، ويقصد المواقع إلى جهتها من جسده ، ولو احتاج إلى غيره واستعان به في حكها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة إلا بعد طول وتعب .

ثم انظر كيف مَدّ منه الفخذ والساقين ، وبَسط القدمين ، ليتمكن بذلك من السعي ، وزيّن القدمين بالأصابع ، وجعلها زينة وقوة على السعي ، وزيّن الأصابع أيضاً بالأظفار ، وقوّاها بها .

ثم انظر كيف خلق الله هذا كله من نطفة مهينة ، ثم خلق منها عظام جسده ، فجعلها أجساماً قوية صلبة ، لتكون قواماً للبدن وعماداً له ، وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة ، فمنها صغير وطويل ، ومستدير ومجوّف ، ومصمت وعريض ودقيق. ثم أودع في أنابيب هذه العظام المخ الرقيق، مصاناً لمصلحتها وتقويتها، ولما كان الإنسان محتاجاً إلى جملة جسمه وبعض أعضائه لتردده في حاجاته ، لم يجعل الله سبحانه عظامه عظماً واحداً ، بل عظاماً كثيرة وبينها مفاصل ، حتى تتيسر بها الحركة ، فقدّر شكل كل واحدة منها على قدر ، وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها ، وربط بعضها ببعض ، بأوتار أثبتها بأحد طرفي العظم ، وألصق الطرف الآخر كالرباط ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منها ،

ومن الآخر نقراً غائصة فيها ، توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق ، فصار الإنسان إذا أراد أن يحرك شيئاً من جسده دون غيره لم يمتنع عليه ، فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف جعل خلْق الرأس مركباً من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور ، وألف بعضها إلى بعض ، بحيث استوت كرة الرأس كما ترى ، فمنها ستة تختص بالقحف[1] ، وأربعة وعشرون للَّحْيِ الأعلى[2] ، واثنان للحي الأسفل ، والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن ، وبعضها حاد يصلح للقطع .

ثم جعل الرقبة مركز الرأس فركّبها من سبع خرزات محوقات مستديرات ، وزيادات ونقصان ، لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها . ثم ركّب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة ، وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ، ووصل به عن أسفله العصعوص ، وهو مؤلف من ثلاثة أخرى ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف ، وعظام اليدين ، وعظام العانة ، وعظام العجز ، وعظام الفخذين والساقين ، وأصابع الرجلين. فجعل جملة عدد العظام في بدن الإنسان مائتي عظم وثمانية وأربعين عظماً ، سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل .

---

١ ـ القحف : أعلى الدماغ (المصباح المنير للمقري ٢ / ٦٤) .

٢ ـ اللحي : عظم الحنك ، وهو الذي عليه الأسنان (المصباح المنير للمقري ٢ / ٩٣) .

فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة ، والمقصود من ذكر أعدادها تعظيم مدبرها وخالقها ، وكيف خلقها وخالف بني أشكالها ، وخصّها بهذا القدر المخصوص ، بحيث لو ازداد فيها عظم واحد لكان وبالاً ، واحتاج الإنسان إلى قلعه ، ولو نقص منها واحد لاحتاج الإنسان إلى جبره،وجعل سبحانه وتعالى في هذا الخلق عبرة لأولي الأبصار ، وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها .

ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام ، وهي العضلات ، فخلق في بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ، ورباط وأغشية ، وهي مختلفة المقادير والأشكال ، بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها ، فأربعة وعشرون منها لحركة العين وأجفانها ، بحيث لو نقصت منها واحدة اختل أمر العين ، وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصّه وقدْرٍ يوافقه .

وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين ، ومنابتها وسعتها فأعجبُ من هذا ، وشرحه يطول . ثم عجائب ما فيه من المعاني التي لا تُدرَك بالحواس أعظم .

ثم انظر إلى ما شُرّف به (الإنسان) وخُصِّص في خلقه ، بأنه خُلِق ينتصب قائماً ، ويستوي جالساً ، ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه ، ويمكنه العلاج والعمل، ولم يخلق مكبوباً على وجهه كعدة من الحيوانات ، إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال .

ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهر الإنسان وباطنه ، فتجده مصنوعاً صنعة بحكمة تقضي منها العجب ، وقد جعل سبحانه أعضاءه تامة بالغذاء، والغذاء متوال عليها ، لكنه تبارك وتعالى قدّرها بمقادير لا يتعدّاها ، بل يقف عندها ولا يزيد عليها ، فإنها لو تزايدت بتوالي الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم ، وثقلت عن الحركة ، وعُطِّلت عن الصناعات اللطيفة، ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها ، ومن اللباس كذلك ، ومن المساكن مثل ذلك ، وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر ، رحمة من الله ورفقاً بخلقه ، فإذا وجدتَ هذا كله صنعة الله من قطرة ماء ، فما ظنك بصنعته في ملكوت السموات والأرض، وشمسها وقمرها وكواكبها ؟ وما حكمته في أقدارها وأشكالها ؟ وأعدادها وأوضاعها ؟ واجتماع بعضها وافتراق بعضها ، واختلاف صورها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظن أن ذرّة في السموات والأرض ، وسائر عالم الله ينفكّ عن حِكَم ، بل ذلك مشتمل على عجائب وحِكَم لا يحيط بجميعها إلا الله سبحانه وتعالى ، ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بَناها** ﴾[1] ؟ إلى آخر ما نبّه به تعالى[2] .

وتأمّل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً وبصراً

---

١ ـ الآية ٢٧ / من سورة النازعات .

٢ ـ الآيات الكريمة : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والارض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولانعامكم » .
النازعات / ٢٧ ـ ٣٣ .

وحياة لم يقدروا على ذلك ؛ **فانظر** كيف خلقها سبحانه في الأرحام ، وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها، وصورها فأحسن تصويرها، وقسّم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام في أرجائها ، وحسن أشكال أعضائها ، ورتب عروقها وأعصابها ، ودبر ظاهرها وباطنها ، وجعل فيها مجرى لغذائها ، ليكون ذلك سبباً لبقائها مـــدة حياتها ، ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة ، من القلب والكبد ، والمعدة والطحال ، والرئة والرحـم ، والمثانة والامعاء ، وكل عضو بشكل مخصوص ، ومقـــدار مخصوص لعمل مخصوص ، فجعل المعدة لنضج الغذاء عصباً متيناً شديداً لحـاجتها إلى ذلك ، وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه ، وجعل طحن الأضراس أولاً معيناً للمعدة على جـــودة طحنه وهضمه . وجعل الكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، فيجذب منه إلى كل عضو من الغذاء ما يناسبه ، فغـذاء العظم خلاف غذاء اللحم ، وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب ، وغـذاء الشعر خلاف غذاء غيره ؛ وجعـــل الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد ، فالطحال لجذب السوداء ، والمرارة لجذب الصفراء ، والكلية لجذب الماء عنه ، والمثانة لقبول الماء عن الكلية ، ثم يخرجه في مجرى الاحليل ؛ والعروق لاتصال الدم منها إلى سائر أطراف البدن، وجعل جوهرها أتقن من جوهر اللحم ، لتصون الدم وتحصره ، فهي بمنزلة الظروف والأوعية .

ثم انظر كيف دبّره في الرحم ، ولطف به ألطافاً يطول شرحها، ولا يستكمل العلم بجملتها إلا خالقها ، ويعجز الواصف عن وصف مـا وصل إليه نظره من ذلك ، فمن ذلك جعله فيه لا يحتاج إلى استدعاء ،

ولا يحتاج المولود إلى ما يبيّن له ذلك ، لا بوعظ ولا تنبيه ، بل ذلك في الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الإغاثة في غذائه ، ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب ، وكلفة التربية . حـتى إذا اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء ، فحينئذ أنبت له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده .

ثم انظر كيف خلق الله فيه التميز والعقل على التدريج إلى حين كماله وبلوغه ، وانظر وفكّر في سرّ كونه يولد جاهلاً غير ذي عقل وفهم ، فإنه لو كان ولد عاقلاً فيهما لأنكر الوجود عند خروجه إليه ، حتى يبقى حيراناً تائه العقل ، إذ رأى ما لا يعرف ، وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله . ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولاً وموضوعاً معصباً بالخرق ، ومسجّى في المهد ، مع كونه لا يستغني عن هذا كله ، لرقة بدنه ورطوبته حتى يولد . ثم كان لا يوجد له من الرقة والحلاوة والمحبة في القلوب ما يوجد للصغير ، لكثرة اعتراضه بعقلة ، واختياره لنفسه ، فتبيّن أن زيادة العقل والفهم فيه على التدريج أصلح بـه[1] . أفلا يرى كيف أقام الله كل شيء فيه من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب ؟ وأعلمه تقلب الخطأ في دقيقة وجليلة ؟

ثم انظر فيما إذا اشتد ، خلق فيه طريقاً وسبباً للتناسل ، وخلق في وجهه شعراً ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ، ويجمله ويستر به

١ ـ وفي ذلك يقول الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً * وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون » .
(النحل / ٧٨)

غصون رجهه عند شيخوخته ، وإن كانت أنثى أبقى وجهها نقياً من الشعر ، لتبقى لها بهجة ونضارة تحرك الرجال ، لما في ذلك من بقاء النسل .

فكّر الآن فيا ذكرناه ودبَّره سبحانه في هذه الأحوال المختلفة ، هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مُهمَلاً ؟ أرأيت لو لم يجر له الدم غذاءً وهو في الرحم ؟ ألم يكن يذوي ويهلك ويجف النبات إذا انقطع عنه الماء ؟ ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله ، ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه ؟ ولو لم يوافقه اللبن عند ولادته ، ألم يكن يموت جوعاً وعطشاً ؟ أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ؟ ولو لم يخلق له الاسنان في وقتها ، ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ؟ ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه ؟ ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقي في هيئة النساء والصبيان؟ فلا ترى له هيبة ولا جلالاً ولا وقاراً ؟ ومن ذا الذي يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها إلا الذي أنشأه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً [١] ؟ وتفضّل عليه ، ومَنَّ عليه بكل هذه النعم ؟

فكّر في شهوة الجماع الداعية لاحيائه ، والآلة الموصلة إلى الرحم النطفة ، والحركة الموجبة لاستخراج النطفة ، وما في ذلك من التدبير المحكم . **ثم فكر** في جملة أعضاء البدن ، وتهيئة كل عضوفيها للأرب [٢]

---

١ ـ قال تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » الانسان / ١ - ٣ .
٢ ـ الأرب : الحاجة (المصباح المنير للمقري ١ / ٧) .

الذي أريد منها ؛ فالعينان للأهتداء بالنظر ، واليدان للعلاج والحذف والدفع ، والرجلان للسعي ، والمعدة لهضم الطعام ، والكبد للتخليص والتمييز ، والفم للكلام ودخول الغذاء ، والمنافذ لدفع الفضلات ، وإذا تأملت كذلك مع سائر ما في الانسان وجدته قد وُضع على غاية الحكمة والصواب .

فكّر في وصول الغذاء إلى المعدة حتى تنضجه ، وتبعث صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء ، ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فَيَنْكؤها ، فإنها خلقت دقيقة لا تحمل الغثّ ، فتقلبُه بإذن الله دماً ، وتنفذ به إلى سائر البدن في مجارٍ مهيأة لذلك ، فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه ، من يابس ورخو وغير ذلك ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [١] . ثم ينفذ ما يكون من خَبَثٍ وفضول إلى [أوعية] [٢] وأعضاء أُعِدّت لذلك كما ذكرنا قبل هذا ، فكوّنها كالأوعية لتحمل هذه الفضلات ، لكيلا تنتشر في البدن فتُسقِمه .

ثم أنظر هل تجد في خلق البدن شيئاً لا معنى له ؟ هل خُلِق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان ؟ فلو كانت الألوان ولم يكن بصرٌ يدركها ، هل كان في الألوان منفعة ؟ ولو لم يكن للخَلْق الأبصار نور خارج عن نورها ما كان يُنتفع بالبصر . وهل خُلِق السمع إلا ليدرك الأصوات ؟ فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة ، وكذلك سائر الحواس .

---

١ ـ الآية ٦٤ / من سورة غافر .
٢ ـ في الاصل [معابض] ولم أجدها في المصباح المنير .

فكّر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها ، منها : الضياء والهواء ، فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها البصر ، ولو لم يكن هواء يوصل الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت .

فكّر فيمن عُدِم البصر والسمع وما يناله من الخلل ، فإنه لا ينظر أين يضع قدمه ، ولا يدري ما بين يديه ، ولا يفرق ما بين الألوان ، ولا يدري بهجوم آفة أو عدو، ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات؛ وأما من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ، ويعدم لذة الأصوات المستحسنة، والالحان المطربة ، وتعظيم المئونة على من يخاطبه حتى ينصرم منه ، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم ، حتى يصير كالغائب وهو شاهد ، وكالميت وهو حيّ ، وأما من عدم العقل فهو أشرّ من البهائم .

فانظر كيف صارت هذه الجوارح ، وهذه الأوصاف التي بها صلاح الانسان محصّلة ومبلّغة لجميع مآربه ، ومتمّمة لجميع مقاصده ، وإذا فقد شيئاً اختل أمره وعظم مصابه ، ومن بُلي بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة ، وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله ، وينال بصبره على ذلك حظاً في الآخرة . فانظر إلى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع .

ثم فكّر في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً ، وما في ذلك من الحكمة والصواب ، فالرأس مما خلق فرداً ، وان كثيراً من الحواس قد حوتها رأس واحدة ، ولو زاد عليه شيء كان ثقيلاً لا يحتاج إليه ، فإن كان قسمين : فإن تكلم واحدهما بقي الآخر معطلاً لا حاجة إليه،

وان تكلم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يحتاج إليها ، وان تكلم من أحدهما بخلاف ما يتكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك ، وأما الذي يأخذ به السامع فهو ما كان واضحاً .

واليدان خُلقتا أزواجاً ، ولو لم يكن للانسان خير في أن يكون يلم بيد واحدة ، لاختلّ ما يعالجه من الأمور ، فإنك ترى من شُلّت إحدى يديه ما يكون عنده من النقص، وان يكلف بشيء لم يُحكِمه ، ولا يبلغ فيه ما يبلغ صاحب اليدين ؛ وحكمة الرجلين ظاهرة .

فكّر في تهيئة آلآت الصوت ، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والأسنان لإصاغة الحروف . والفم ؟ ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه ؟ **ثم انظر** إلى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها إلى الرئة ، فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع . وما في اللسان من تقليب الطعام ، واعانته على تسويغ الطعام والشراب . وما في الأسنان من المعونة أيضاً ، ثم هي كالمسند للشفتين ، تمسكها وتدعمها من داخل الفم ، وبالشفتين يُرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد ، وبقدر ما يخشاه الانسان . ثم هما على الفم كالباب .

فقد تبين لك أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه من المآرب ، وضروب من المصالح ، وان زاد أفسد ، وان نقص أفسد ، **فذلك تقدير العزيز العليم** .

فكّر في الدماغ ، إذا كُشف عنه فإنك تجده قد لُفّ بعضه فوق بعض ، ليصونه من الأعراض ، وأطبقت عليه الجمجمة ، والشعر

ستر لها وجمال، ويبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك، فحصّن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهم وأنه مستحق لذلك، لكونه ينبوع الحسّ.

ثم انظر كيف غيّبَ الفؤاد في جوف الصدر، وكساه المدرعة التي هي غشاؤه وأتقنها، وحصّنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه، وان ذلك هو اللائق به. **ثم انظر** كيف جعل في الحلق منفذَيْن: أحدهما للصوت، وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة، والآخر للغذاء وهو المريء الواصل إلى المعدة، وجعل على الحلقوم طبقاً [1] يمنع الطعام أن يصل إليه. ثم جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تُغيّر ولا تَخَلّ، تأخذ وترد بغير كلفة، لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي إلى التلف، ثم ملأ الجو هواء لهذه المصلحة ولغيرها.

ثم انظر كيف جعل لمنافذ البول والغائط سراحاً يضبطها، لكي لا يجري جرياناً دائماً فيفسد على الانسان عيشه؛ **ثم انظر** كيف جعل لحم الفخذين كثيراً كثيفاً، ليقي الانسان من ألم الجلوس على الأرض، كما يألم من الجلوس من نحل جسمه وقل لحمه إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل.

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخياً أبداً، كيف يصل الماء إلى موضع الخلق، ولو كان مُنعظاً أبداً كيف يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك؟ بل جعله مستوراً كأن لم تخلق له شهوة. **ثم انظر** أليس

١ ـ طبقاً أي لهاة على باب الحلقوم تمنع الماء والطعام من الوصول الى مجرى التنفس.

أنه من حسن التدبير في البناء أن يكون الخلاء في أستر موضع في الدار؟ فلهذا اتُّخِذَ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الانسان في استر موضع من جسده، مغيّب فيه، تلتقي عليه فخذاه بما عليهما من اللحم فتواريه به، ويخفى ذكره، وذلك مخصوص بالانسان لشرفه.

ثم **انظر** في خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان، وفي تقصيرهما مصلحة، جعلا عديمَي الحس حتى لا ينال الانسان ألم عند التزيّن بقصّها، ولولا هذه الحكمة لكان بين أمرين: إما أن يدعها على حالها فيتشوّه خلقه، أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته؛ **ثم تفكر** في الشعور لو نبتت في الأعين لأعمت البصر، أو في الفم لنغصّت الأكل والشرب، أو في راحة الكف لنفدت لذة اللمس وبعض الأعمال، أو في الفرج لكدرت لذة الجماع، مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها. **فسبحان المُدبّر المُنعِم بهذه النِّعَم.**

فانظر كيف قُصِد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر، ثم فيما جُبل عليه الانسان من الاحتياج إلى المطعم والنوم والجماع، وما في ذلك من التدبير المحكم، فقد جعل في طبعه محركاً يقتضيه ويستحثه، فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته، وكذلك الشراب الذي به قوامه، والنوم فيه راحة للبدن وعموم القوى، والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه. فلو كان الانسان إنما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة إليه، ولم يجد من طباعه ما يلجئه إليه، لاشتغل بأسباب ضرورته، فتنحل قواه ويهلك، كما أنه قد يحتاج إلى دواء يكرهه وفيه صلاحه، وليس في جبلته داعية له فيدافع عن تناوله، فيمرض أو يموت. فكذلك

لو كان يفعل بالنوم ويدخله على جسمه باختياره ، لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصَب . وكذلك لو كان اقدامه على الجماع إنما هو لرغبة حصول الولد لانقطع النسل ، لما يعارضه من الأسباب المشغلة ، فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره إلى حصول هذه الفوائد .

ثم انظر كيف رُتّبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب ، فصار البدن بما فيه بمنزلة دار لملك فيها حشم ، **وقوم موكلون بالدار** : **فواحد** لإمضاء حوائج الحشم وايراد ماء لهم ؛ **وآخر** لِكَسْح ما في الدار من الأقذار واخراجه. فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه، والدار هي البدن ، والحشم هي الأعضاء ، **والقوم** في هذه القوى الأربع **هي النفس** ، وموقعها من الانسان بمعنى الفكر والوهم، والعقل والحفظ ، والغضب وغير ذلك . أرأيت لو نقص من الانسان من هذه الصفات الحفظ وحده ؟ كيف يكون حاله ؟ وكان لا يحفظ حينئذ ماله وما عليه ، وما أصدر وما أورد ، وما أعطى وما أخذ ، وما رأى وما سمع ، وما قال وما قيل له ، ولم يذكر من أحسن إليه ولا من أساء له ، ولا من نفعه ممن ضرّه ، وكان لا يهتدي الطريق لو سلكه ، ولا لعلم ولو درسه ، ولا ينتفع بتحريره ، ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى .

فانظر إلى هذه النعَم ، كيف موقع الواحدة منها ؟ فكيف جميعها ؟ وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان ، فلولا النسيان ماسَلا الانسان عن مصيبته ، فكان لا ينقص له حسرة ، ولا يذهب عنه حقد ، ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات

والفجائع المغضبات ، وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ، ولا فترة ولا ذهولاً من حاسد أو قاصد مضرة ، فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان ، وجعل للانسان في كل منهما ضروباً من المصالح .

ثم انظر إلى ما خصّه به دون غيره من الحيوان من الحياء ، فلولاه لم تقبل العثرات ، ولم تقض الحاجات ، ولم يُقْرَ الضيف ، ولم يثمر الجميل فيفعله ، ولا يتجافى عن القبح فيتركه ، حتى إن كثيراً من الأمور الواجبة إنما تفعل لسبب الحياء من الناس ، فترد الأمانات ، وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما ، ويعف عن فعل الفواحش ، إلى غير ذلك من أجل الحياء ، **فانظر** ما أعظم موقع هذه النعمة في هذه الصفة .

وانظر ما أنعم الله به من النطق الذي يميز به عنه البهائم ، فيعبر بما في ضميره ، ويفهم عن غيره ما في نفسه . وكذلك نعمة الكتابة التي تفيد أخبار الماضين للباقين، وأخبار الباقين للآتين، وبها تخلد في الكتب العلوم والآداب ، ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست العلوم ، وضاعت الفضائل والآداب ، وعظم الخلل الداخل على الناس في أمرهم بسبب عدمها . **فإن قلت** : إن الكلام والكتابة مكتسبة للانسان ، وليست بأمر طبيعي ، ولذلك تختلف الخطوط بين عربي وهندي ورومي إلى غير ذلك ؛ وكذلك الكلام هو شيء تصطلح عليه فلذلك اختلف ؛ **قلنا** : ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة ، والذهن والفكر الذي يهتدى به ليس بفعل الانسان ، ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبداً ، فسبحان

المنعم عليه بذلك . وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه ، والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبداً ، **فسبحان المنعم عليه بذلك .**

ثم انظر إلى حكمة **الغضب** المخلوق فيه ، يدفع عن نفسه به ما يؤذيها ، وما خلق فيه من **الحسد** ، فبه يسعى في جلب ما ينتفع به ، غير أنه **مأمور بالاعتدال في هذين الأمرين** [1] ، فإن جاوز الحد فيها التحق برتبة الشياطين ، بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب على دفع الضرر ، وفي الحسد على الغبطة ، وهي ارادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره .

ثم انظر ما أعطى وما منع ، مما فيه أيضاً صلاحه ، فمن ذلك الأمل ، فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ، ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة ، فإن الانسان أول ما يخلق ضعيف ، فلولا أنه يجد آثار قوم أحلوا وعمروا لم يكن له محل يأوي إليه ، ولا آلة ينتفع بها ، فكان الأمل سبباً لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين ، وهكذا يتوارث إلى يوم الدين .

ومنعَ الانسان من عِلمِ أجله ومبلغِ عمره لمصلحة ، فإنه

---

١ ـ أي مأمور بالاعتدال في الغضب والحسد ، أما الاعتدال في الغضب : فالمراد به ضبط النفس عند الغضب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «ليس الشديد بالصرعة، وانما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب «رواه البخاري» (الترغيب والترهيب للمنذري ٥ / ١١٦ ؛ وأما الاعتدال في الحسد فالمراد به هنا الغبطة ، وهى تمني مثل ما ناله الغير أو كان عنده ، من غير أن تتمنى زواله عنه لما أعجبك منه وعظم عندك ، فهذا جائز وليس بحسد ، فإن تمنيت زواله عن الغير وكرهته لغيرك ليكون لك فهو الحسد (المصباح المنير للمقري / ٤٢ ، ٦٣) .

لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهنأ حياته ، ولم ينشرح لوجود نسل ، ولا لعمارة أرض ، ولا لغير ذلك ، ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات وتعدى الحدود ، واقتحم المهلكات ، ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عما يؤدي إلى اتلافه ، فكان في جهله بمدة عمره حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ، ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوات .

ثم انظر إلى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها ، وأصناف الفواكه مع اختلاف أنواعها وبهجتها ، وأصناف المراكب ليركبها ويحصّل منافعها ، وطيور يلتذّ بسماعها ، ونقود وجواهر يقتنيها ، ويصل بها إلى أغراضه ، ويجدها في مهماته ، وعقاقير يستعملها لحفظ صحته ، وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك ، وأزهار وغيرها من العِطْريّات يتنعّم بروائحها وينتفع بها ، وأصناف من الملابس على أختلاف أجناسها ، وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم ، **فانظر** ماذا ركّب الله فيه من العجائب .

ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملُّك ما ينتفع به بنوا آدم ، ليتميز منهم الفقير من الغني ، فيكون ذلك سبباً لعمارة هذه الدار ، ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الأحوال ، فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبي ، فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضرّ به نفسه ، ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالاً عليه .

وكم عسى أن يَعُدّ العادُّ الحِكَم واللطائف التي يقصد بها قوام

العالم وعمارتـــه إلى الأجل المعلوم ، وهي مما لا تدخل تحت حـد ، ولا يحصرها عد ، ولا يعلم منتهى حقائقها ، واحصاء جملتها إلا **الحكيم العليم** ، الذي وَسِعَت رحمته وعلمه كل شيء ، وأحصى كل شيء عدداً.

خاتمـــة لهـــذا الباب

في تكريم الانسان

إعلم أن الباري سبحانه وتعالى شرّف هـذا الآدَميّ ، وكرّمـه فقال سبحانه : « **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُم في البَرِّ والبَحْرِ * وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ * وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** »[١]. فكان من أعظم ما شرّفه به و كرّمه العقل ، الذي تنبّه به على البهجة ، وألحقه بسببه بعالم الملائكة ، حتى تأهّل به لمعرفة بارئه ومُبدِعه بالنظر في مخلوقاتـــه ، واستدلاله على مخلوقاته ، واستدلاله على معرفة صفاته ، بما أودَعه في نفسه من حكمة وأمانة ، قال الله العظيم : « **وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ** »[٢]؟ فكان نظر الانسان في نفسه ، وفيما أودع الباريء سبحانه فيـــه من العقل ــ الذي يقطع بوجوده فيه ، ويعجز عن وصفه ــ من أعظم الدلالات عنده على وجود بارئه ومدبره وخالقه ومصوره . فإنه ينظر في العقل

١ ـ الآية ٧٠ / من سورة الاسراء .
٢ ـ الآية ٢١ / من سورة الذاريات .

كيف فيه التدبير ، وفنون العلم ، ومُستقَرّ المعرفة ، وبصائر الحكمة ، والتمييز بين النفع والضرر ، وهو مـــع القطع بوجوده (أي العقل) لا يرى له شخصاً ، ولا يسمع له حساً ، ولا يحسّ له بجساً ، ولا يشم له ريحاً ، ولا يدرك له صورة ولا طعماً ، وهو مع ذلك آمِرٌ ومُطاع ، وراجٍ زيادة ، ومفكر ومشاهـد للغيوب ، ومتوهم للأمور ، اتسع له ما ضاق عن الأبصار ، ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية ، يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سمواته وما فوقها ، وأرضه وما تحتها ، حتى كأنه يشاهده أبينَ من رأي العين ، فهو [أي العقل] موضع الحكمة ، ومعدن العلم ، كلما ازداد علمـــاً ازداد سعة وقوة ، يأمـر الجوارح بالتحرك ، فلا يكاد أن يميز بين الهمّ بالحركة ، وبين التحرك بسرعـة الطاعة ، أيهما أسبق وان كان الهم قبل . وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفـــة نفسه ، إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بصفةٍ وهيئةٍ أكثر من الاقرار بأنه مُسلِّم للذي وصفه ، العليم به ، ومقر بالجهل بنفسه ، وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم ، يميز بين لطائف التدبير ، ويفرق بـين دقائق الصنع ، وتجري الأمور وقد تدبّرها ، ويتوهم العواقب وقـد تمثّلها ، ويدل على الأمور على اختلافها . فدلّ جهله بنفسه ، وعلمـه بما يدبّر ويميّز أنه مركّب مصنوع ، مصوّر مقهور ، لأنه مع حكمته واتّقاد بصيرته ، عاجز مَهين ، يريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينساه فيذكره ، ويريد أن يُسَرّ فيحزن ، ويريد أن يغفل فيذكر ، ويريد أن يتنبه ويتيقّظ فيسهو ويغفل ، دلالة على أنه مغلوب مقهور ، جاهل بحقائق ما علم ، وهو مع ما دبّر لا يدري كم مدى مبلغ صوته ، ولا كيف خروجه ، ولا كيف اتّساق حروف كلامه ، ولا كم مدى مبلغ

نظره ، ولا كيف رُكّب نوره ، ولا كيف أدرك الأشخاص ، ولا كم قدْرُ قوته ، ولا كيف تركّبت ارادتـه وهمّته ؟ فاستدلّ بعلمه – عن حقيقة ما علم – أنه مصنوع بصنعة مُتقنة ، وحكمة بالغة ، تدل على الصانع الخالق ، المريد العليم عزّ وجلّ .

ثمّ إنه خلق في الانسان الهوى موافقاً لطباعه ، فإن استعمل نور العقل فيما أمر به وَرَدَ مَوْرِدَ السلامة ، وفاز غداً بدار الكرامة ، وإن استعمله في اغراض نفسه وهواها حُجِب عن معرفة أمور لا يدركها غيره ، مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة مِنَ الثواب والحجاب [1] والعقاب .

وهو [أي العقل] **الآلة في عمل الصنائع** ، وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها في ذهنه وتخيله ، واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ، ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة في كل أمة وزمان ، واستحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء ، وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد .

فانظر ما شرّف الله به هذا الانسان ، أن خلق فيه ما يفيده هذه المعارف ، فإن الأواني تشرُف بشرف ما يوضع فيها ، ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك . ولما سبق في علم الباريء سبحانه وارادتِه وحكمتِه ، بمصير الخلق إلى دار غير هذه الدار ، ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطّلعون به على أحكام تلك الدار ،

١ – وإليه الاشارة في قوله تعالى : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففون / ١٥ .

كمّل سبحانه هذا النور الذي وهبهم إياه [وهو نور العقل] بنور الرسالة إليهم ، **فأرسل الأنبياء** صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته ، ومنذرين لأهل معصيته ، فمدهم بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه ، فكانت أنوار ما جاء بالوحي مِن عند الله ، بالنسبة إلى نور العقل ، كالشمس بالإضافة إلى نور النجم ، **فدلّوا العباد** على مصالح دنياهم فيما لا تستقل بادراكه عقولهم ، وارشدوهم إلى مصالح أخراهم ، التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطتهم ، وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاءوا به ما أوجب الاذعان والانقياد لصدق أخبارهم ، فتمت بذلك نعمة الله على عباده ، وظهرت كرامته ، وثبتت حجته عليهم .

فانظر ما أشرف الآدمي ونسله ، الذين ظهر منهم هؤلاء الفضلاء ، الذين هم قابلون لهذه الزيادات الفاضلة ، ثم تضافرت أنوار الشرائع التي هي كالشمس ، وأنوار العقول التي هي كالنجم ، فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنى ، وشقاوة من كذب ولم يُرِد إلا الحياة الدنيا [1] .

ثمّ إن الله تبارك وتعالى منّ على الانسان بأن خصه برؤيا يراها في منامه ، أو في عينه كشبه المنام ، يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه ، وهي مبشّرة أو منذرة له لما يتوقعه بين يديه ، وكل ذلك

١ – إقرأ ثم فكر في قوله تعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » النجم / ٢٩ – ٣٠ .

مواهب وكرامات من جود الله سبحانه ، وجعل الله استقامتــه على الطاعة في قلبه وجوارحه سبباً لصدقها في غالب الأمر ، ليتّعِظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها، وهي الأمور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها ، وأطْلَعَ على بعض الأمور منها من شاء من عباده .

في حكمة خلق الطير

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ألمْ يَروا إلى الطيرِ مُسخّراتٍ في جوّ السماء ما يُمسكهُنّ إلا الله**[١]﴾ وقال تعالى ﴿**أولم يَرَوا إلى الطيرَ فوقهم صافـّاتٍ ويقبضنَ ★ما يُمسكهُنّ إلا الرحمن ★ إنه بكل شيءٍ بصير**[٢]﴾

إعلم رحمك الله : أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفّة للطيران ، ولم يخلق فيه ما يُثقله ، وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه . وصرّف غذاءه ، فقسّم لكل عضو ما يناسبه ، فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به ، فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانـــه ، واسعة الأسفل لتثبت في

١ ـ الآية ٧٩ / من سورة النحل .

٢ ـ الآية ١٩ / من سورة الملك . [وهي زيادة من المحقق في متن الكتاب ليظهر للقاريء تضافر الآيات في كتاب الله على لفت العقول الى هذا الخلق والتفكر فيـــه] .

موطن على الأرض ، وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ، ليستغني عن الريش في الحر والبرد ، وكان من الحكمة خلقه على هذه الصنعة ، لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن مواضع فيها الطين والماء ، فلو كسيت ساقاه بريش لتضرّر ببلله وتلويثه ، فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران؛ وما خُلِقَ من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذائه من غير حرج بها ، إذ لو طالت رجلاه ، وقَصُرَ عنقه لم يمكنه الرّعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكبّ على صدره ، وكثيراً ما يُعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ، ليزداد مطلبه عليه سهولة ، ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه ، واختل رعيه .

وخلق صدره ودائرَه ملفوفاً مَرْبيّاً على عظم كهيئة نصف دائرة، حتى يخرق في الهواء بغير كلفة ، وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيَه ، ويصلح لما يغتذي به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك ، فمنه مخلب للتقطيع خصّ به الكواسر وما قوته اللحم ، ومنه عريض مُشَرشَر، جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً ، ومنه معتدل اللقط هو آكل الخضر ، ومنه طويل المنقار للحصر ؛ وجعله صلباً شديداً شبه العظم ، وفيه ليونة ما هي في العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله ، وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان .

وقوّى سبحانه أصل الريش ، وجعله قصباً منسوجاً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ، ولأن حركة الطيران

قوية فهو محتاج إلى الاتقان لأصل الريش ، وجعل ريشه وقاية مما يضره من حرٍّ أو برد ، ومعونة متخللة الهواء للطيران ، وخص الأجنحة بأقوى الريش ، وأثبته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه . وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره ، كسوة ووقاية وجمالاً له ، وثبّت أصل جميعه ، وجعل في ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده، والأدران لا توسخه ، فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاضٍ يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته .

وجعل له منفذاً واحداً للولادة ، وخروج فضلاته لأجل خفّته ، وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه ، فلولاه لمالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً ، فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي يعتدل بها سيرها . وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بلا مضغ جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ، ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية، وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً. وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغني به عن المضغ وثقل الأسنان ، واعتبر ذلك وغيره ، فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير . ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران ، فانه لو خُلِقَت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وعُوِّق عن النهوض للطيران . **أفلا ترى** كيف دبّر الله كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة ؟

أنظر إلى من أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة . من ألهمه أن يلتقط الحَب ؟ فإذا ماع في باطنه غذّى به أفراخه ،

وهذا نوع من الطير .

ثم انظر مع هذا كيف احتمل هـــذه المشقة وليست له روية ولا فكر في عاقبة ، ولا له أمل يأمله في أفراخه ، كما يأمـــل الإنسان في ولده من العزّ والرّفد وبقاء الذكر ، فهل هذا إلا إلهام إلهي من فعل الله سبحانه ؟ **انظر** كيف ألهم معرفة حمل الأنثى منه بالبيض ، فألهم حينئذٍ حمـــل الحشيش وتوطئته في موضع التحضين والولادة ، لتقوم الرطوبة والتوطئة بحفظ البيض ، ويكون البيض محفوظاً في المهـــاد يمهدونه ويستحسنونه في حال تحضينه .

انظر إلى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفرخ وانتهـــاء تحضينه للبيض ، حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه . وإن اتفق في البيض فساد بسبب عَرق قام وتركه .

ثم انظر إلهامه بما يزقّ به فرخه ، فإنه أولاً يزقّه بالريح لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها ، ثم بعد ذلك يزقّه من أول هضم ، ثم إذا ماع الغذاء في حوصلته يزقّه به ، ويفعل ذلك مراراً حتى يمـــلي حوصلته ، فإنه لو أرسله إليه حباً صحيحاً لعجز عن هضمه لضعف جسده . **فانظر** إن كان هذا من فعل الطير وحكمته . **ثم انظر** عند خروج الفرخ من البيضة كيف يسنده إلى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به .

ومن الطير مما يُخلَق على هيئة أخرى لحكمة أُخرى ، ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد ، بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء . وذلك أن الدجاج ليس فيهم أهلية الزقّ ، بل جعلت

أفراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة .

ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخـــين خوف أن يفسد بيضهم ، فيعقب هذا صاحبه كأنّه أُلْهِم علماً بأن عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم .

ثم انظر إلى خلق البيضة وما فيها من الحِكَم لله ، ففيهـا المُح (١) الأصفر الحابر (٢) والماء الأبيض الرقيق ، فبعضه لينشأ منه جسده ، وبعضه يغتذي به إلى أن تنشقّ عنه ، وما في ذلك من التدبير المحكم العجيب ، وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة تلتقي به إلى حين كماله فيها وخروجه منها .

ثم انظر في حوصلة الطائر ، وما في خلقهـا من التدبير ، فإن مسلك طعامه إلى القانصة (٣) ضيق ، لا ينفذ إليه إلا قليلاً قليلاً ، فلو كان لا يلتقط حبته حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه ، مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه مـا يؤذيه ، فصار مـــا يحتكره احتراساً لشدة حذره ، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامـــه ، ليودع فيها ما ادرك من الطعام بسرعة ، ثم ينفذه إلى القانصة على مهل. وفيها حكمة أُخرى ، فإن الطير الذي يزقّ أفراخه يكون رده الطعام من قرب [أي من الحويصلة] أسهل عليه .

---

١ ـ المح . صفرة البيض (البستان معجم لغوي لعبد الله البستاني / ٢٢٣٤) .

٢ ـ الحبر : بفتح الحاء والباء ، صفرة تصيب الاسنان وهو مصدر حبرت الاسنان، والحابر شديد الصفار (المصباح المنير للمقري / ٥٥) .

٣ ـ الحبوب التي يتناولها الطير تدخل أولاً الى الحوصلة وتتجمع فيها ثم تتسرب الى القانصة على مهل تمهيداً لهضمها .

ثم تأمل ريش الطائر ، فإنك تجده منسوجاً نسج الثوب من سلوك رقاق، فيها من اليبس ما يُمسِك حولها، ومن اللّين ما لا ينكسر معه [عودُها] وهي خاوية ، وقد تألّف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط ، والشعر إلى الشعر . ثم تجده إذا فتحته – أعني نسيج الريش – ينفتح قليلاً ، ولا ينشق لتدخله الريح فتثقله عن طيرانه ، وتجد في وسط الريشة عموداً غليظاً يابساً مثبتاً ، قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته ، فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء ، وهو – أي عمود الريشة – مجوف ليخف على الطير طيرانه .

انظر إلى الطائر الطويل الساقين ، والحكمة في طولها أنه يرعى أكثر رعيه في صحصاح كأنه فوقه مراقب ، يتأمل ما يدب في الماء ، فإذا رأى شيئاً من حاجة خطا خطواً رفيقاً حتى يتناوله ، فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزّه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه .

انظر إلى العصافير وغيرها، فإنها لا تطلب رزقها في طول نهارها، فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً محله ، وهو أمرٌ جارٍ على سنّة الله في خلقه ، فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق . فإن الطير لو وجده ميسراً لأكبّ عليه ، ولا يقلع عنه حتى يمتلىء فيثقل عن الطيران ولا يستطيع رده ، أعني قذفه من بطنه ، مثل طير الماء الكبير ، فإنه يأكل السمك ، فإذا امتلأ منه وأزعجه تقيأه حتى يخف للطيران ، وكذلك الناس أيضاً ، لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا فراغاً يوقعهم في غاية الفساد .

انظر إلى هذه الأصناف من الطير ، التي لا تخرج إلا ليلاً ، مثل البوم والهام والخفاش ، فإن عيشها يتيسر في الجو ، بالبعوض والفراش وشبهه ، فإنها مُنبَثّة في هذا الجو، فجعل عيشه في موضع أقرب إليه من الأرض ، ولعل النور لا يعينه أن يلتقط من الأرض ، بدليل أنه لا يظهر في نور الشمس إلا مختفياً، فألهم أن يعيش في الجو من الفراش وغيره .

أنظر إلى الخفّاش ، لما خلق بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه ، وجعل له فم وأسنان وكل ما في البهائم الأرضية من الولادة وغيرها ، وأقدره على الطيران ، فأظهر سبحانه أن قدرته على الطيران لا تقتصر على ما خـَلق له من الريش، ولا ينحصر ذلك في نوع واحد ، لأنه خلق [من الطير] هذا النوع ، وخلق من السمك جنساً يطير على البحر مسافة طويلة ثم ينزل الماء ، **فسبحان القاضي العليم** .

انظر إلى الذكر والانثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة ، فإذا احتاج أحدهما إلى قوته ناب الآخر، إلى وقت الحضانة، ثم ألهمها الحرص على الحضانة ، فلا يطيلان الغيبة على البيض إذا خرجا لنيل القوت ، حتى أنهما يجتمع في أجوافهما البراز للحرص على الرقاد ، فإذا اضطر لخروج البراز أخرجه دفعة واحدة .

ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها ، كيف يطردها وينقرها، ولا يدعها تستقرّ خارجاً عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعه . **انظر** كيف يَزُقّ أفراخه ويعطف عليها ما دامت محتاجة إلى الزق ، حتى إذا كبرت واشتدت ، ولقطت واستغنت عن أبوَيها ، صارت إذا تعرضت له

لنيل ما اعتادت عليه – من الزق – ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها .

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى في الكواسر من شدة الطيران حتى لا يُسبَق لما يطلبه ، ومن قوة المخلب وحِدّته في المنقار والأظفار ، فكأن مخلبها مدية للقطع ، وكأن مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى تحصل ما تحتاجه من قوتها .

ثم انظر إلى طير الماء ، لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ، ليأخذ من جوف الماء رزقه ، **فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته .**

في حكمة خلق البهائم

قال الله تعالى ﴿**والانعام خلقها ★ لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون ★ ولكم فيها جَمالٌ حين تُريحون وحين تسرحون ★ وتحمل اثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالِغيه إلا بشقّ الأنفس ★ إن ربكم لرءوفٌ رحيم ★ والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة ★ ويَخلـُقُ مالا تعلمون**[1]﴾

إعلم وفقك الله وإيانا : أن الله خلق البهائم لمنافع العباد ، وامتناناً عليهم ، كما نبهت على ذلك هذه الآية، فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه ، وعصب شديد وعروق شداد ، وضمّ بعضها إلى بعض، ولم يجعلها رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة، وجعل لذلك تجلداً اشتمل على ابدانها كلها ليضبطها ويتقنها ، لأنه أريد منها القوة للعمل والحمل ؛ ثم خلقها سبحانه سميعه بصيرة ليبلغ الانسان حاجته ، لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الانسان ، ولا وصل بها إلى شيء من مآربه .

---

١ ـ الآيات ٥ – ٨ / من سورة النحل .

ثمّ مُنِعَت العقل والذهن حكمة من الله لتذِلّ للانسان ، فلا تمتنع عليه إذا أكدّها عند حاجته إلى إكدادِها في الطحن وحمل الاثقال ، إلى غير ذلك . وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها ، وهم لا يطيقون أعمالها ولا يقدرون عليها . ولو كلف العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم، فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يُخصُّون بعملها وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها، ولا لتحصيل الفضائل من العلوم والآداب، ولكان ذلك مع اتعابه لأ بد انهم يضيّق عليهم معايشهم ، فكان قضاؤه على هذا وتسخيرها لهم من النعم العظيمة .

أنظر في خلق أصنافٍ من الحيوان ، وتهيئتها لما فيه صلاح كل صنف منها : فبنو آدم لما قُدِّروا أن يكونوا ذوي علاج للصناعات ، واكتساب العلوم وسائر الفضائل ، ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والتجارة وغير ذلك ، خُلِقت لهم العقول والاذهان والفكر، وخلقت لهم الأكف ذوات الأصابع ، ليتمكنوا من القبض على الأشياء ، ومحاولات الصناعات . وآكلات اللحم لما قُدّر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب . وآكلات النبات لما قُدّر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد خلقت لبعضها أظلاف كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ، ولبعضها حوافر مستديرة ذات مقر كأخمص القدمين ، لتنطبق على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب .

تأمّل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان ، كيف خلقت ذوات أسنان حداد ، وتراس شِداد ، وأفواه واسعة ، وأُعينت

بسلاح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه ، فإن ذلك كله صالح للصيد . فلو كانت البهائم التي عيشها النبات ذوات مخالب وأنياب ، كانت أعطيت ما لا تحتاج إليه ، لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم . ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح الذي به تصطاد. **فانظر** كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته .

أنظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف تجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل كما يحتاج الآدميون ، إذ لم يجعل في امهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم ، والرفق في أحوال التربية ، والقوة عليها بالفكر ، والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره ، فلذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها . ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج يدرج ويلتقط عقيب خروجه من البيضة ، وما كان منها ضعيفاً لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل في الأمهات عطفاً عليها ، فصارت تعين الطعام في حواصلها ، ثم تمجُّه في أفواه أفراخها ، ولا تزال كذلك حتى تنهض [أفراخها] وتستقل ، فكلٌّ أُعطي من اللطف والحكمة بقسط ، **فسبحان المدبر الحكيم** .

أنظر إلى قوائم الحيوان كيف تنتقل أزواجاً لتتهيأ للمشي ، فلو كانت أفراداً لم تصلح لذلك ، لأن المائي منها ، ينقل منها بعضه ، ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منها ، وذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى ، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين ، وذلك من خلاف ، لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه ويعتمد

على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير ، ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه ، فجعل ينقل اليمنى من مقدَّمِه على اليسرى من مؤخَّرِه ، ويعتمد الأخريَين من خلاف أيضاً ، فتثبت على الأرض ولا تسقط إذا مشى ، لسرعة التحاقهما فيما بين المشي والاعتماد .

أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن ، والفرس مُرَدَّعٌ عنها ؟ والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى ، وينقاد لصبي صغير ؟ والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرثه ؟ والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة في الحروب وقاية لراكبها ؟ والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد ؟ فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة — لنفورها — لتعذرت رعايتها ، وربما اعجزت طالبها . وكذلك جميع الحيوان المسخر للانسان ، وما ذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي ، فكان ذلك سبباً لتذليلها ، فلم تلتو على أحد من الناس وإن أكدّها في كثير من الأحوال . وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية ، لتواردت على الناس وانكتهم نكاية شديدة عظيمة ، ولعَسُر زجرها ودفعها ، ولا سيما إذ اشتدت حاجتها في طلب قوتها واشتد خلها . ألا ترى إذ أجحمت عن الخلق ، وصارت في أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها ، حتى صارت لا تظهر ولا تنبعث في طلب قوتها في غالب أحوالها إلا ليلاً ، فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الأنس ، بل هي ممنوعة منهم ، ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم وضيقت عليهم مساكنهم .

ألا ترى الكلب — وهو من بعض السِّباع — كيف سُخِّر في حراسة

منزل صاحبه ؟ حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه ؟ ثم إنه أعان صاحبه بقوّة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه ، ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش ، والهوان والجفاء ؟ فطبع على هذه الخلال لمنفعة الانسان في الحراسة والاصطياد؛ ولما جعله الباري سبحانه حارساً أمده بسلاح ، وهو الأنياب والأظفار . واللهث القوي ليذعر به السارق والمريب ، ويجتنب المواضع التي يحميها .

ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحاً مثبَّتاً على قوائم أربع ، لتمهيد الركوب والحمولة ، وجعل فرجها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها ، إذ لو كان أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها ؛ **ألا ترى** أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل امرأته؟ **فتأمل** هذه الحكمة والتدبير . ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها ، فإذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها ، فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الانعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ، ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل ، **وذلك من عظيم العبر** .

ثم انظر كيف كُسِيَت أجساد البهائم الشعر والوبر ، ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات ، وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفا ، وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره .

ولما كانت البهائم لا أذهان لها ولا أكُفّ ، ولا أصابع تتهيأ للأعمال ، كُفِيَت مئونة ما يضرُّ بها ، بأن جعلت كسوتها في خَلقِها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدال بها ، ولا تجديد بغيرها ،

بخلاف الآدمي، فإنه ذو فهم وتدبير، وأعضاء مهيأة لإعمال ما يقترحه، وله في إشغاله بذلك صلاح، وفيه حكمة، فإنه خلق على قابلية لفعل الخير والشر، وهو إلى فعل الشر أميل منه إلى فعل الخير، فجعلت له الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه، ليشتغل بها عمّا فيه فساده وهلاك دينه، فإنه لو أعطى الكفاية في كل أحواله أهلكه الأشر [1] والبطر، وكان من أعظم الحيوانات فساداً في الأرض، ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق ينال به السعادة، **إلى ما فيه شقاوته**.

ثم ان الآدمي مكرّم [2] يتخيّر من ضروب الملابس ما شاء، فيلبس منها ما شاء، ويخلع منها ما شاء، ويتزين بها، ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء، ويكمل بها زينته وجماله وبهاءه في عين من يصحبه ويحب قربه، ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه، وهذا من باب النعمة عليه والكرامة له، بخلاف البهائم، فإنها غنية عن ذلك كله.

أنظر فيما ألهم الله البهائم والوحوش في البراري، فإنها تواري أنفسها كما يواري الناس موتاهم، فما أحس منها بالموت توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت، وإلا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها؟ فإنك لو طلبت منها شيئاً لم تجده، وليست قليلة، فيخفى أمرها لقلتها؛ بل لو قال قائل: إنها أكثر من الأنس لم يبعد، لأن

١ ـ الأشر: بفتح الشين، البطر وكفر النعمة فلم يشكرها (المصباح المنير للمقري ٢ / ٩).

٢ ـ وقد قال الله في معرض تكريمه لبني آدم: « ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر. ورزقناهم من الطيبات. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » الآية ٧٠ / من سورة الاسراء.

الصحارى قد امتلأت من سباع وضباع. وبقر وحمير، ووعل وإبل، وخنزير وذئاب، وضروب من الهوام والحشرات، وأصناف من الطير، وغير ذلك مما لا يحصى عدده، وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها. ولا يُرى لها رُمَم [1] موجودة. والذي أجرى الله به عادتها أن تكون في أماكنها، فإذا أحسّت بالموت أتت إلى مواضع خفية فتموت فيها. **فانظر** هذا الأمر الذي ألهمت له هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه، وشُخّص لبني آدم بالفكر والتروّي.

تأمّل الدواب كيف خلق أعينها شاخصة أمامها؟ لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تتردى في حفرة، وإذا قربت من ذلك نفرت منه وأبعدت نفسها عنه، وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه. **أليس الذي جعلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها ليُنتَفَع بها؟**

ثم انظر إلى فمها مشقوقاً إلى أسفل الخطم [2] لتتمكن من نيل العلف والرعي، ولو جعل كفم الانسان لم تستطع أن تتناول شيئاً من الأرض، وأعينت بالجحفلة لتقضم بها ما قرب منها، فالهمت قضم ما فيه صلاحها، وترك ما لا غذاء لها فيه ولا صلاح.

أنظر ما كان من البهائم كيف يمزّ الماء في شربه مزّاً، وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه، يدفع بها في شربه ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش، ويحركها تحريكاً يدفع به الكدر عن الماء حتى

١ ـ الرمم: بضم الراء وفتح الميم، مفردها رمة، والرمة العظام البالية وتجمع على رمم (المصباح المنير للمقري ١ / ١١٠).

١ ـ الخطم: من كل طائر منقاره، ومن كل دابة مقدم الانف والفم (المصباح المنير للمقري ١ / ٨٠).

يشرب صفوه ، فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الأسنان .

ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته ، وكيف خُلق كأنه غطاء في طرفه شعر ، فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها ، ومنها أن ما بين دبرها وطرق بطنها أبداً يكون فيه وَضَرٌ يجتمع بسببه الذباب والبعوض، ويجتمع أيضاً على مؤخرها ، فأعِينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها، فصار كأنه مِديه في يدها تذب وتطرد عنها ما يضرّ بها ، ثم إنها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضاً . ثم إن الدابة أيضاً أُعينت بحركة مختصة، وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكاً تطرد به الذباب وغيره عنها ، وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين . ومن الحكمة فيه أيضاً أن الدابة تستريح بتحريكه يُمنَةً ويُسْرَةً ، لأنها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها أيضاً بالحمل لبدنها ، فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة ، واعينت بسرعة حركته حتى لا يطول ألمها بما يعرض لها . ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت في بركة أو مهواة، أو وَحَلَت في طين أو غيره، فلا تجد شيئاً أهوَن على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها ، ومن ذلك إذا خيفَ على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب، أو أن يسبقها رأسها فتنكب على وجهها ، فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يعدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها ، إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم .

انظر إلى مشفَر الفيل وما فيه من الحكمة والتدبير ، فإنه يقوم مقام اليدين في تناول العلف وايصاله إلى فمه ، فلولا ذلك ما استطاع

أن يتناول شيئاً في الأرض ، إذ لم يجعل له عنق كسائر الأنعام ، فلما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم يمده فيتناول به ما يحتاجه ، فسبحان اللطيف الخبير. **انظر** كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه ، ومنخراً يتنفس منه ، وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره ، ويناول من هو راكب عليه .

أنظر إلى خَلْقِ الزرافة ، لما كان منشؤها في رياض شاهقة ، خلق لها عنقاً طويلاً لتدرك قوتها من تلك الأشجار .

تأمل في خُلق الثعلب ، فإنه إذا حفر له بيتاً في الأرض جعل له فوهتين : إحداهما ينصرف منها ، والاخرى يهرب منها إن طُلِب ، ويرفق[1] مواضع في الأرض من بيته ، فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه في المواضع التي رفقها ، فخرج من حيز المنافذ ، وهي المواضع التي تحتها ، **فانظر** ما خلق الله تبارك وتعالى في جبلته لصيانة نفسه .

وجملة القول في الحيوان : أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق ، فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق منه الانقياد والتذلل ، وجعل قوته النبات . وما جعل منه للحمل جعله هادىء الطبع ، قليل الغضب ، منقاداً ومفصلاً على صور يتهيأ منه الحمل . وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نُظم خلق فيه

١ ـ المرفق : هو ما ارتفقت به وانتفعت به ، والمراد هنا أنه يشق طرقاً في الارض من بيته لينتفع بها ويهرب من أحدها اذا دوهم من الآخر (البستان معجم لغوي لعبد الله البستاني / ٩٢٢) .

هذا القبول للتعليم ، ليستعين العباد بصيده وحراسته ، وأعين بالات قد تقدم ذكرها . ومن جملة ذلك الفيل ، فإنه ذو فهمٍ مخصوص به ، وهو قابل للتأنس والتعليم ، فيُستعان به في الحمل والحروب . ومنها ما له غضب وشر إلا أنه متأنس بالانسان لمنفعته كالهرة . ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من الالفة والتأنُس ، فمن ذلك الحمام يألف موضعه ، فسهل بسببه الإخبار بسرعة إذا دعت حاجة إلى ذلك ، وجعله الله سبحانه وتعالى كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به ؛ ومن ذلك البازي فإن طباعه تنتقل إلى التأنس ، وإن كان في طبعه مباينا ، إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم ، حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد ، **وما خَفِيَ من الحِكَم في خلق الله تعالى أكثر مما عُلم .**

في حكمة خلق النحل ، والنمل ، والعنكبوت ، ودود القز ، والذباب ، وغير ذلك .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا مِنْ دابَّةٍ في الأرضِ * ولا طائرٍ يطير بجناحَيه * إلا أُمَمٌ أمثالكم * ما فرَّطنا في الكتابِ مِن شيء * ثم إلى ربِّهم يُحشرون** ﴾[1] .

أنظر إلى « النمل » وما أُلهمت له في احتشادها في جمع قوتها وتعاونها على ذلك ، وإعدادها لوقت عجزها عن الخروج ، والتصرف بسبب حر أو برد . وأُلهمت في تقلب ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب ، حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما حمله ، أو جهد به ، أعانه آخر منه ، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم إلا بالتعاون ، ثم إنها أُلهمت حفر بيوت في الأرض ، تبتدىء في ذلك باخراج ترابها ، وتقصد إلى الحب الذي فيه قوتها ، فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض ، فما خلق

١ ـ الآية ٣٨ / من سورة الانعام .

هذا في جبلتها إلا الرحمن الرحيم ، ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف ، ثم إنها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خوفاً من السيل أن يغرقها .

ثم انظر إلى « النحل » وما ألهمت إليه من العجائب والحكم ، فإن الباري سبحانه جعل لها رئيساً تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها ؛ فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر ، وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق ، لأنها إذا كانا أميرين وسلك كل منهما فجاً افترق النحل خلفهما . ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار ، فيستحيل في أجوافها عسلاً ، فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما أخبر سبحانه وتعالى [1] ، وفيه غذاء وملاذ للعباد، وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم ، فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم واقواتها ، ومـا فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس .

ثم انظر إلى ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها لتوعي فيه العسل وتحفظه ، فلا تكاد تجد وعاءً أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح . **فانظر** في هذه الذبابة ، هل في علمها وقُدرتها جمع الشمع مع العسل؟أو عندها من المعرفة مثل ما للنحل بحيث ترتب حفظ العسل مدة طويلة باستقراره

---

١ ـ وذلك في قوله تعالى: « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات . فاسلكى سبل ربك ذللا . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » الآيتان ٦٨ و ٦٩ / من سورة النحل .

في الشمع ، وصيانته في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها . **ثم انظر** لخروج النحلة نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها ، وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها في ترتيب بيوتها ، ومن الحكمة في بنائها ، حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ، ولهـا جهة أخرى تجعل فيها برازها مُباعداً عن مواضع العسل ، **وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .**

انظر إلى « العنكبوت » وما خلق الله فيها من الحكمة ، فإن الله خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه ، وشركاً لصيدها ، فهو مخلوق من جسدها ، وجعل الله غذاءها من أقواتها ، ينصرف إلى تقويم جسدها ، وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة ، فتنصبه أبداً مثل الشرك ، وفي ركن الشرك بيتهـا ، وتكون سعه بيتها بحيث يغيب شخصها، والشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك، فإذا أحست أن شيئاً من ذلك وقع في شركها خرجت إليه بسرعة ، وأخذته محتاطة عليه ، ورجعت إلى بيتها فتقتات بما يتيسر لهـا من رطوبة تلك الحيوانات ؛ وان كانت مستغنية في ذلك الوقت شكلته وتركته إلى وقت حاجتها . **فانظر** ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها ، فبلغت في ذلك ما يبلغه الانسان بالفكرة والحيلة ، كل ذلك لاصلاحها ونيل قوتها ، **ولتعلم أن الله هو المدبّر لهذا .**

ثم انظر من العجائب « دود القز » وما خُلِقَ فيه من الأشياء التي يُتحيَّر منها ،ويُذكرُ الله عند رؤيتها ، فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الانسان ومنافعه ، فإن هذا الحيوان يخلق من جسمه الحرير ،

وذلك أن صورة البزر تحضن، حتى إذا احمى عاد دوداً كالذر، فيوضع هـذا الدود على ورق التوت فيتغذى منه ، فلا يزال يرعى منه حتى يكتمل جسمه فينبعث إلى عزل نفسه في جوز الحرير، فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه ويعود في جوزة الحرير ، ويصير جسماً ميتاً لا حياة فيه .

ثم انظر فإن الباري سبحانه لمـا أراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله [رتب تطوره على أمر عجيب][1]. فعند مـا ينتهي من غزل الحرير ويعفى ذلك الجسم يقلبه الله إلى صورة طائـر صغير قريب من صورة النحل [أو الفراشة] ؛ فيجمع على بساط أو غيره ، وهو في رأي العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى ، فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى ، ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن أولاً ، ثم يطير فيذهب فلا يبقى بهـا انتفاع ، إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر ، **فانظر** من ألهمها الرعي من ذلك الورق حتى تغتذي منه ؟ ومن ألهمهـا إلى غـزل أجسادها حريراً حتى يفنى جسمها فيما غزلته ؟ ومن ربى لها اجنحة؟ وقلب صورتها حتى صارت علي هيئة يمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها ؟ ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولا هـذا الاجتماع .

ثم انظر ما يسرّه الباري سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمله من بني آدم ، حتى يكون منه أموال كثيرة ، وملابس عظيمة وزينة. **وانظر** هذا التسخير العجيب في هذا الحيوان اللطيف،

١ ـ ما بين القوسين [ ] زيادة من المحقق لتوضيح السياق .

وما أظهر فيـه سبحانه من بارع الصنع وعجيب العقـل ، وعظيم الاعتبار ، ومـا جعل فيـه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة العظام للرّفات ، **سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم .**

ثم انظر إلى « **الذبابة** » وما أُعينت به لنيل قوتها ، فإنها خُلقت بأجنحة تسرع بها إلى موضع تنال فيه قوتها ، وتهرب بها عما يهلكهـا ويضرّ بها ، وخلق لها ستة أرجل، تعتمد على أربع، وتفضل منها اثنتين، فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللتين تليها، وذلك لرقة أجنحتها، ولأن عينيها لم يخلق لها أهداب ، لانها بارزتان عن رأسها . وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم ويقع عليهم دائماً ، ويُنغص عليهم عيشهم ، ليعرفهم الباري سبحانه هوان الدنيـا ، حتى تصغُر عندهم ويهون أمر فراقها ، **وهو وجه من وجوه الحكمة لهم .**

تأمّل كثيراً من الحيوان الصغير عندما تلمسه يعود كأنه جمـاد لا حراك به ، ويبقى على ذلك ساعة ، ثم يتحرك ويمشي ، وهـل ذلك إلا لأن ما يُصطاد إنما يُصطاد إذا دلت هيئته على حياته ، فـإذا كان شبيهاً بالجماد تُرك كما تُترك سائر الحجارة.

تأمل « **العقاب** » عندما يصطاد السلحفاة ، يجدها كأنهـا حجر ، ولا يجد فيها موضعاً لأكله ، فيصعد بها في مخالبه ، حتى إذا ابتعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها ، فتهشمها الوقعـة فيسقط عليها فيأكلها . **فانظر** كيف أُلهم الطريق في نيل قوته من غير عقل ولا روية .

أنظر إلى « الغراب » لما كان مكروهاً ، خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه، حتى كأنه يعلم الغيب ممن يقصده ، وألهم الاحتيال في إخفاء عشه لصون فراخه ، وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره ، ولذلك قل أن يُرى مجتمعاً مع أنثى ، فهذا أبداً دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة ، وتراه مع البهائم على خلاف ذلك ، فيقف على ظهورها ، ويأكل من دم البعير ، ومن أرواث الدوابّ وقت تبرزها ، وإذا وجد شيئاً من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتاً آخر ؛ فما خَلَقَ هذا في طبعه ، ودبّرهُ بهذا التدبير العجيب إلا الله ، لأنه [أي الغراب] لا عقل له ولا رويّة .

انظر إلى « الحدأة » لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها ، وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها ، فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجو فتحطّ نحوه بسرعة ، والهمت معرفة من هو مقبل ومن هو مدبر ، فتخطف ما تخطفه من الناس من ورائهم ، ولا تخطف مما يستقبلها لئلا يمنعها المستقبل بيديه ، واعينت – لما كان غذاؤها من هذه الوجوه – بأن جعلت لها مخالب كأنها السنانير ، فلا يكاد يسقط منها ما ترفعه، **فسبحان المدبر الحكيم.**

أنظر إلى الحيوان المسمى « حرباء » وما فيه من التدبير ، فإنه خلق بطيئاً في نهضته ، وكان لا بد له من قوته ، فخلق على صورة عجيبة ، فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى يدرك صيده من غير حركة في جسده ولا قصد إليه ، ويبقى جامداً كأنه ليس من الحيوان ، ثم أُعطيَ مع السكون ، وهو أنه يتشكل مع لون الشجرة التي يكون عليها ، حتى يكاد يختلط لونه بلونها ، ثم إذا قرب منه

ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه ، فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق ، ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة ، وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ، ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه ، فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة ، وإذا رأى ما يريبه ويخيفه تشكّل على هيئةٍ وشكل ينفر منه من يصطاد الحيوان ويكرهه. فانظر هذه الأشياء التي خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها .

أنظر إلى الحيوان الذي يسمى « سبع الذباب » وما أعطى من الحيلة والرفق فيما يقتات به ، فإنك تجده يحس بالذباب قد وقع قريباً منه فيركد ملياً حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به ، فإذا أحس أن الذباب قد اطمأن دب دبيباً رقيقاً حتى لا ينفره ، حتى إذا صار قريباً منه بحيث يناله بوثبة وثب عليه فأخذه ، فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب ، فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيغتذي فيه بما يلائمه ، **فانظر إلى** هذه الحيلة من فعله ، وهي مخلوقة من أجل رزقه ، **فسبحان الباري الحكيم .**

أنظر إلى « النرّ والبعوض » الذي أوهن الله قوّتها ، وأصغر قدرها، وضرب بها المثل في كتابه ، هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها من جناح تطير به ، ورجل تعتمد عليها ، وبصر تقصد به موضعاً تنال فيه قوتها ، وآلة لهضم غذائها واخراج فضلته . **وانظر** هل يمكن أن تعيش من غير قوت ؟ وهل يمكن أن يكون القوت في غير محل واحد؟ واخراجه فضلته من غير منفذ ؟ **ثم انظر** كيف دبرها العزيز الحكيم فسواها، وقدر أعضاءها، واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها،

وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة ، فهي بعوضة صغرت في النظر ، ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض و من الملائكة ، فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين ، أرادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها ، وحسن اعتدال صورتها في أعضائها ، لما قدروا على ذلك إلا تظاهراً لمنظر العجز منهم على عدم علم حقيقة الخبر ، **ولو اجتمعوا ثم تفكروا** كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دماً ، وهو الذي فيه غذاؤها ، ولولا معرفتها به لم تدم على مصه حتى تطعمه ، وكيف همتها التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي ألهمها ربها أن فيه غذاءها ، وكيف خرق سمعها ، وكيف سمعت حسّ من يقصدها ، **فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون** . ولو جزؤوها ما ازدادوا في أمرها إلا عمىً وبعداً عن المعرفة ، فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة ، فما ظنك بجميع مخلوقاته ؟ **سبحانه وتعالى عُلوّاً كبيراً** [1] .

١ ـ وقد ضرب الله مثلا في القرآن فقال :
« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له * ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له * وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه * ضعف الطالب والمطلوب * ماقدروا الله حق قدره * ان الله لقوي عزيز ».
الآيتان ٧٣ ، ٧٤ / من سورة الحج .

في حكمة خلق السمك
وما تضمن خلقها من الحكم

قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذي سخّرَ البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً** ﴾ [1]

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال ، وما فيه من الآيات البينات ، فإنه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم ، ولم يخلق فيه رئة ، لأنه لا يتمشى وهو منغمس في لجة الماء ، وخلقَ له مكان القوائم اجنحة شداد ، يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء ، وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه ، متراصة كأنها درع ، لتقية ما يعتدي عليه وما يؤذيه ؛ وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة — وهي القشر المتداخل المخلوق على ظاهره — خلق له جلداً غليظاً متقناً يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره ، وخلق له بصراً وسمعاً وشماً ، ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه ، **ثم انظر** كيف أُعطيَ في قعر البحر ما يناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره .

١ ـ الآية ١٤/ من سورة النحل .

ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثّره، وجعل أكثر أصنافه يحمل،ولم يجعل الحمل منه مخصوصاً بالأنثى دون الذكر كحيوان البرية ، بل جعل الذكر والأنثى جنساً واحداً ، يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ، ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر ، فيخلق من جوف واحدة عـدداً لا يحصى ، وذلك من كل بزرة حوتاً من الجنس ، ومن جنس آخر يخلق في الأنهار وغيرها بغير توالد ، فيخلق منها أعداداً لا تحصى دفعة واحدة ، ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى ،وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح، وما شاكلها فيتولد منها بيض ، فإذا فقس البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحد من الجنس .

ولما علم سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره ، ألقى الروح في البزر جميعه عندما يولد ، فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه ، فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كال خلقه ؛ فانظر هذه الحكمة واللطف ، حيث لم يمكن حضانته في البحر ، ولا تربيته ولا معونته البتة ، جعله مستقلاً بنفسه ، مستغنياً عن ذلك كله ، ثم إن الله سبحانه كثّره لأن منه قوت جنسه، وقوتاً لبني آدم والطير ، فلذلك كان كثيراً .

ثم انظر إلى سرعة حركته،وإن لم تكن له آلة كغيره من الحيوان. وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه ، وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل السفينة برجلها في سيرها ، وخلقت أرياشه ألواحاً من جانبيه ليعتدل بها أيضاً في سيره فهو بمنزلة المركب .

وانظر إلى عظامه كيف خلقت مثل العمد يبنى عليها ، ففي كل

موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو ، فهو كإنشاء المركب ، يمتد فيه العظم الجافي الذي هو قوّته ، ويخرج من الأضلاع إلى مراقي البطن والظهر وعظام الرأس مما يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه .

وانظر إلى ما كان منه كاسراً كيف أعين على نيل قوته ، لصلابة اللحم ، وقوة النهضة ، وكثرة الأسنان ، حتى أنه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة كافية وتجزيه عن المضغ .

انظر إلى ما خلق الله في البحر ضعيفاً قليل الحركة ، مثل أصناف الصدف والحلزون ، كيف حفظه بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه ، وجعل له بيتاً وسكناً ، وجعل ما يوالي جسده ناعماً أنعم ما يكون ، وربما ضيّق بيت بعض أصناف الحلزون ، حتى لا يكون فيه مطمع البتة ؛ وأصناف منه خلقت في محائر مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لِتَغلقَها،ولا يضيق مسلكها ، فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطاً ، وجعل لها أسباباً تلتصق بها في الجبل ، فلا يستطاع إخراجها إلا بغاية الجهد ، وجعل لها قوتاً من رطوبة الجبل تأتي حياتها بها .

وأمّا الحلزون الذى بيته كأنه كوكب فإنه يخرج رأسه ويرعى، فإذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه في بيته ، وختم عليه بطابع صلب ، يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة . **فانظر** هذا اللطف وأن الله لم يهمل شيئاً، واعلم أن الله حافظ لما في البحار وما في الآكام والجبال،

فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[1] .

وانظر إلى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير منها، والكبير في الأعماق، وخلق الله في جوفه صبغاً كأنه حبر، وهو يُخلـَق له فيه من فضلة غذائه كما يخلق اللبن في الضرع، فإذا أحس بما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه، ثم يذهب في الماء الذي تغيّر، فلا يُعرَف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغير الماء، فعل الله ذلك له وقاية لنفسه، وجعل فيه مصالح أخرى لا يعلمها إلا خالقها .

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل أجنحة الخفاش، ينتقل بها عند وقوع الأنواء من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء، ويظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر .

انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف، وكثيراً ما يكون في الأنهار، وجعل الله فيه خاصية تصونه إذا اقتربت منه يد من يأخذه، وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب . فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله في خلق واحد لامتلأت الكتب . وعجز البشر عن استكمالها، وما هو المذكور في كل نوع إلاّ تنبيه يشير إلى أمر عظيم .

---

١ ـ في هذه العبارة اقتباس من جواب موسى عليه السلام حين سأله فرعون : « قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » الآيتان ٤٩ ـ ٥٠ / من سورة طه .

في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ أمّن خَلقَ السماواتِ والأرض ★ وأنزل لكم من السماءِ ماءً فانبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجةٍ ★ ما كان لكم أن تُنبِتوا شجرَها ★ ءَإلهٌ مع الله ★ بل هم قومٌ يَعدِلون[1] ﴾ .

انظر وفقك الله وسددك إلى ما على وجه الأرض من النبات، وما في منظره من النعم، في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض .

ثم انظر إلى ما جعل الباري فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى، وخلق فيه من الحب والنوى لحفظ أنواع النبات، وجعل الثمار للغذاء والتفكه، والاتبان للعلف والرعي، والحطب للوقود، والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن، ولغير ذلك من

---

١ ـ الآية ٦٠ / من سورة النحل .

الأعمال التي يطول تعدادها . والورق والأزهار ، والأصول والعروق ، والفروع والصموغ ، لضروب من المصالح لا تحصى : أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها ؟ لكان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب والحطب والأتبان وسائر المنافع ما لا يُعدّ ، وإن وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها .

ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة ، وأكثر من ذلك وأقل ، والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الاقتيات ، وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات ، وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة ، فأعطى أهلها من البذر ما يبذرونه ، وفضلة يتقوّتون بها إلى إدراك زرعهم ، فهذه هي الحكمة التي أعمّ الله بها البلاد وأصلح بها العباد . وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف ثمراتها حتى يكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ، ليكون فيه ما يأكله العباد ، ويصرفونه في مآربهم ، ويفضل منه ما يدخر ويُغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه ، ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلفه .

تأمل هذه الحبوب ، فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط ، لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم كما تخلق المشيمة على الجنين ، فأما البذر وما أشبهه من الحبوب فإنه يخرج من قشور صلبة ، على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير . فانظر كيف حصنت الحبوب بهذه الحصون ، وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيبها ، فهو وإن كان ينال منها قوته ، إلا أن حاجه الآدمي أشد وأولى .

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات ، فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات — ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها — جعلت أصولها مركوزة في الأرض ، لتجذب الماء من الأرض ، فتغتذي بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار ، فصارت الأرض كالأم المربية لها ، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها ، وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان من أمهاتها . ألم تر إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل ، فهكذا أمر النبات كله ، له عروق منتشرة في الأرض ، ممتدة إلى كل جانب تمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية ، لا سيما في الرياح العاصفة ، **فانظر** إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة ، واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته .

تأمل خلق الورق ، فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة ، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ ، منسوجاً نسجاً دقيقاً عجيباً ، لو كان مما يصنع بأيدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة ، وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج ، **فانظر** كيف يخرج منه في المدة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة وحركة ، إلا قدرة الباري وإرادته وحكمته .

ثم انظر إلى العجم والنوى والعلة فيه ، فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامها إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب ، فصار ذلك كالشيء النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه ، فإن حدث

لما في بعض المواضع منه حادث وجد منه في موضع آخر ؛ ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها ، ولولاه لسرحت وسرح الفساد إليها قبل إدراكها ؛ وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح شتى .

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب ، وفوق العجم من العنبة والهيئة التي تخرج عليها ، وما في ذلك من الطعم واللذة والاستمتاع للعباد ؛ **ثم تأمل** خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب ، كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان ، وهو سر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه ، وما علم من ذلك يطول شرحه .

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابته ، وخلقت في ظاهره قشرة ، حتى أنه بسبب ذلك إن سقط في تراب أو غيره لا يفسده مريعاً ، وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظاً ، فصار قشره الخارج حافظاً لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه ، وعندما يوضع في الأرض ويُسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء ، وكلما ازداد غصناً ازداد عرقاً يتقوّى به أصل الشجرة ، وينصرف الغذاء منه إلى الغصن ، فهي كذلك إذ يُتمّ غصنها قوتها ، فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء ، والانكسار بالنقل أو بغيره ، ويصعد الماء في جذورها إلى أعالي الشجرة ، فيقسمه الله سبحانه بالقسط وميزان الحق ، فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة في الأوراق ، وإلى جوانب الورق ما يليق بغذائها ، وللثمار غذاء صالح لها ، وللأقماع والأزهار غذاء صالح ،

ولكل من ذلك ما يليق به ويصلحه ، فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ، وروائحها وألوانها المختلفة ، وحلاوتها وطيبها .

ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقاً لخروج الثمار ، لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها ، تتضرر بحرّ الشمس وبرد الهواء ، فكانت الأوراق ساترة لها ، وصار ما بينها من الفُرَج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى عنها ، فيحفظها من المن والعفن ، وغير ذلك من الفساد .

ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الأشجار والثمار والأزهار ، وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، فأشكالها ما بين طويل وقصير ، وجليل وحقير ، وألوانها ما بين أحمر وأبيض ، وأصفر واخضر ، ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصاف ومتوسط. وطعومها ما بين حلو حامض، ومزّ ومُرّ. وروائحها متنوّعة إلى عطرات لذيذات مختلفات. وقد اوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدور ، ويكشف للمتأمل منه كل مستور .

فانظر ما أودع الباري سبحانه فيها من السر عند النظر إليها ، فإنها تجلي عن القلوب درنها عند مشاهدتها ، وتنشرح الصدور برؤيتها ، وتنتعش النفوس لرونق بهجتها . وأودع الله فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير ، فمنها ما تقوى به القلوب ، ومنها أغذية تحفظ الحياة ، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها ، وخلق فيها بذوراً لحفظ نوعها ، تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها .

انظر وتأمل في قوله عز وجل : ﴿ **وشجرةً تخرجُ من طورِ**

سَيناءَ تنبتُ بالدُّهن وصِبغٍ للآكلين ﴾ (١) فأخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتاً صافياً لذيذاً نافعاً ، كما اخرج اللبن من بين فرثٍ ودم ، واخرج من النحل شراباً عسلاً مختلفاً الوانه فيه شفاء للناس ، ولو جمعت هذه الأشياء في مستقر لكانت مثل الأنهار ، وكل ذلك لمنافع العباد . **فانظر** ما في ذلك من العبرة لذوي الأفكار. **ثم انظر** إلى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة ، وكيف قسم الباري في غذاء النخلة ، فقسم للجذور ما يصلح لها ، وللجريد وما فيه من السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ، ويرسل للثمرة ما يليق بها ، وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة . وجعل الثمرة – لما كانت ضعيفة في أول أمرها – متراصة متراكمة بعضها فوق بعض ، مجموعة في غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها ، حتى إذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء ، فانشق عنها غلافها على التدريج ، وهو الذي كان حافظاً لها ، فيصير يفترق شيئاً بعد شيء على قدر ما تحتمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكتمل قوتها ، فتظهر جميعها حتى لا يضرّ بها ما يلقاها من حر وبرد ، ثم تراها في النضج والطيب إلى بلوغ الغاية المقصودة منها ، فيلتذ حينئذ بأكلها ، ويمكن الانتفاع بادخارها ، وتصرَف في المآرب التي هيئت لها ، واعتبر ذلك في جميع الاشجار ، فانك ترى فيها من اسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يَعتَبرُ به كل ذي فهم ولب . فمن ذلك: خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير ، فإنك ترى فيها شحماً مركوماً في نواحيها ، غليظ الأسفل ، رقيق الأعلى ، كأمثال التلال في تلوينه ، أو البناء الذي وسع أسفله للاستقرار ،

١ ـ الآية ٢٠ / من سورة المؤمنون .

ورفق أعلاه حتى صار مرصوفاً رصفاً كأنه منضّد بالأيدي ، بل تعجز الأيدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور ، وتراه مقسوماً أقساماً ، وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه ، لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية ، وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله .

ومن حكمة هذه الصفة : أن حبها لو كان حشوها منه صِرفاً بغير حواجز لم يمد بعضه بعضاً في الغذاء ، فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء . ألا ترى أصول الحب كيف هي مركوزة في ذلك الشحم ؟ ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها ، ومن رقها وضعفها لا تكدر على الأكل ولا تعرف بها .

ثم انظر ما يصير من الحلاوة في الحب من أصول مُرّة شديدة المرارة قابضة ، ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه عن الاضطراب وتحفظه ، ثم حَفِظَ الجميع وغشاه بقشر صلب ، شديد القبض والمرارة ، وقاية له من الآفات ، فإن هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات ، وهو ما بين غذاء ودواء ، وتدعو الحاجة إليه في غير زمانه الذي يُجنى فيه من شجره ، فحفظ على هذه الصنعة لذلك .

انظر إلى عود الرمانة التي هي متعلقة به ، كيف خلق مثبتاً متقناً حتى تستكمل خلقها ، فلا تسقط قبل بلوغها الغاية ويُحتاج إليها ، وهي الثمرة المختصة بالانسان دون غيره من الحيوان .

انظر إلى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه ذلك ، وما فيه من التدبير ، فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقاً

رياناً ذا احتياج إلى الماء ولا ينبت إلا به ، جعل ما ينبت به منبسطاً على وجه الأرض ، فلو كان منتصباً قائماً كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها ، فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غاياتها ، فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغـاية ، وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة ، والسقي يمدها .

وانظر هذه الأصناف كيف لا تُخلق إلا في الزمن الصالح لها ولمن تناولها ، فهي له معونة عند الحاجة إليها ، ولو أتت في زمان البـرد لنفرت النفوس عنها ، ولأضرّت بأكثر من يأكلها .

ثم انظر إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح ، خلق فيها الذكر الذي تحتاج إليه لذلك ، حتى صار الذكر في النخل كأنـه الذكر في الحيوان،وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع.

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة ، فواحد يغور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة ، وآخر لاخراج المرة السوداء ، وآخر للبلغم ، وآخر للصفراء ، وآخر لتصريف الريح ، وآخر لشد البطن في الطبيعة ، وآخر للإسهال ، وآخر للقيء ، وآخر لروائحه ، وآخر للمرضى والضعفاء ، وكل ذلك من الماء ، **فسبحان من دبّر مُلكه بأحسن التدبير** .

فيما تستشعر بـه القلوب من العظمة لعـلام الغيوب

قال الله العظيم : **﴿ تسبّح لهُ السموات والأرضُ ومَنْ فيهنّ * وانْ مِنْ شيءٍ إلا يسبّحُ بحمدِهِ * ولكن لا تفقهون تسبيحَهُم * إنه كان حليماً غفوراً ﴾** (١) . وقال تعالى : **﴿ تـكادُ السمواتُ يتفطـّرْنَ مِنْ فوقِهن * والملائكةُ يسبّحونَ بحمدِ ربهـم ويستغفرون لِمَنْ في الأرض * ألا إنّ اللهَ هـوَ الغفورُ الرحـيم ﴾** (٢) . وقال تعالى : **﴿ ويُسبّحُ الرعدُ والملائكة من خيفَتِه ﴾** (٣) .

إعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع ، وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات

---

١ ـ الآية ٤٤ / من سورة الاسراء .
٢ ـ الآيـة ٥ / من سورة الشورى .
٣ ـ الآيـة ١٣ / من سورة الرعـد .

بينات ، وبراهين واضحة ، ودلائل دالات على جلال باريها وقدرته ، ونفوذ مشيئته وظهور عظمته ، **فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك** ، رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه ، وكذلك إذا نظرت إلى مستقرك وهو الأرض ، وأجلت فكرك فيها ، وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات، وما أحيط بها من بحار زاخرات ، وما جرى فيها من الأنهار ، وما انبث فيها من أصناف النباتات والأشجار ،وما بثّ فيها من الدواب ، إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب .

ثم إذا نظرتَ إلى سعتها ، وبعد أكنافها ، وعلمت عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها ؛ ثم إذا نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلق العظيم إلى السماء ، وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة،وما ذكره النظار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفاً وستين جزءاً ، وأن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة . ثم إنك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حَوَت السموات، وهي مركوزة فيها ، ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ؟

ثم انظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك في حدقة عينك مع صغرها ، وبهذا تعرف بُعْدَ هذا كله منك ، وعظم حركتها وأنت لا تحس بها ولا تدركها لبعدها ؛ ثم انك لا تشك أن الفلك يسير في لحظة قدر كوكب ، فيكون سيره في لحظة قدر الأرض مائة مرة أو أكثر من ذلك ، وأنت غافل عن ذلك .

ثم فكّر في عظم قدر هذه الأشياء ، واسمع قسم الرب سبحانه بها في مواضع من الكتاب العزيز ، فقال عز وجل : ﴿ **والسماءِ ذاتِ البروج**[1] ﴾ . وقال : ﴿ **والسماءِ والطارق ★ وما أدراك ما الطّارق ★ النجمُ الثاقِب**[2] ﴾ . وقال : ﴿ **فلا أُقسمُ بمواقِعِ النجوم ★ وإنّهُ لقسمٌ لو تعلمونَ عظيم**[3] ﴾ إلى غير ذلك من الآي.

ثم ترقّ بنظرك إلى ما حواه العالم العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم ، وما أخبر به جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن إسرافيل عليه السلام ، يقول جبريل : « فكيف لو رأيت اسرافيل ؟ وإن العرش لعلى كاهله ، وإن رجله لفي تخوم الأرض السفلى » وأعظم من هذا كله قوله عز وجل : ﴿ **وَسِعَ كُرسِيُّهُ السماواتِ والأرض**[4] ﴾ . فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم ؟ فارفع نظرك إلى باريء هذا العظيم ، واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم ، وعلى جلاله وقدرته وعلمه ، ونفوذ مشيئته ، واتقان حكمته في برّيته.

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تُقِلُّه، ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته،فمن نظر في ملكوت السماوات والأرض، ونظر في ذلك بعقله ولبه ، استفاد بذلك المعرفة بربه ، والتعظيم لأمره ، وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل ، وكلما ردّد العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة

---

١ ـ الآية ١ / من سورة البروج .
٢ ـ الآيات ١-٣ / من سورة الطارق.
٣ ـ الآية ٧٥ / من سورة الواقعة .
٤ ـ الآية ٢٥٥/ من سورة البقرة .

ويقيناً ، واذعاناً لبارئه وتعظيما . ثم الخلق في ذلك متفاوتون ، فكلٌّ مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية ، واعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب العزيز ، وتفهّم ما ورد فيه وتدبّر آياته ، مع ملازمة تقوى الله سبحانه . **فهذا هو باب المعرفة بالله ، واليقين بما عند الله .**

ثم **انظر** وتأمل ما نُشير إليه ، فإنك علمت على الجملة أن رسول الله ﷺ أسرى به إلى أن بلغ سدرة المنتهى ، ورآى من آيات ربه الكبرى ، واطّلعَ على ملكوت ربّه ، وتحقّق أمرَ الآخرةِ والأولى ، ثم دنا حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فما ظنك بعلم من شرُفَ بهذا المعنى ، ثم أُمِرَ بأن يقول : ﴿ **وقُل ربِّ زدني علماً** [1] ﴾ علّمك الله بمعرفته ، ومَنَّ عليك بنور هدايته ، واستعملنا وإيّاك بطاعته ، وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته ، بِمَنّهِ وكرَمه وجوده ، إنّه وليُّ ذلك .

والحمد لله رب العالمين

---

١ ـ الآية ١١٤ / من سورة طه .

مراجع تحقيق الكتاب

١ ـ **القرآن الكريم .**

٢ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : وضع محمد فؤاد عبدالباقي طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٤ هـ.

٣ ـ **الكون بين العلم والدين** : للدكتور جمال الدين الفندي ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة .

٤ ـ **وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان** : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، طبعة دار الصياد ـ بيروت .

٥ ـ **طبقات الشافعية** : تأليف جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي ، تحقيق عبدالله الجبوري ، طبعة ديوان الأوقاف بالعراق ، ١٣٩١ هـ.

٦ ـ **الأعلام** : تأليف خير الدين الزركلي ، المطبعة العربية بمصر ١٣٤٧ هـ. = ١٩٢٨ م.

٧ ـ **المصباح المنير** : معجم لغوي تأليف العلامة أحمد بن علي المقري الفيومي ، المتوفى سنة ٧٧٠ هـ. المطبعة العثمانية بالأزبكية بالقاهرة ١٣١٢ هـ

٨ ـ **البستان** : معجم لغوي ، تأليف عبدالله البستاني ، المطبعة الأمريكانية في بيروت ـ ١٩٢٧ م.

٩ ـ **تحقيق النصوص ونشرها** : تأليف عبد السلام هارون ، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع بالقاهرة ؛ الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م.

موضوعات الكتاب

عنوان المحقق

بيروت – جنوبي دار الفتوى

شارع – عبدالباسط فاخوري

هاتف ٣٠٦٤٣٥ – ٣١٥٨١٣